العجب في أخبار شعراء العرب

شعراء أنصفهم التاريخ وظلمتهم المناهج الدراسية

د. عبد الكريم بن عائض الشهراني

العجب
في
أخبار شعراء العرب

العجب في أخبار شعراء العرب

شعراء أنصفهم التاريخ وظلمتهم المناهج الدراسية

إعداد

د. عبدالكريم بن عائض الشهراني

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

..Dłyøø ǵF

إلى من رسمت حروف الأدب على
صفحات أيامي
إلى صاحبة الفضل بعد الله في
التحاقي بمدرسة الحياة
إلى أغلى مخلوق بعد رسول الله
(صلى الله عليه وسلم)

إلى أمي الحبيبة

.. ǯŁÑæýǩŁ ѲĶæÑɊŢǭ

..ηǭy⁄øǢǭ

في الحقيقة لست بشاعر ولا ناقد شعر ، وإنما متذوق لكل شعر جريء ينبض الدم الساخن في عروقه حينما فجرته ينابيع قلب قائله في أنابيب الزمان لتبقى نابضة بالحياة على مدى قرون عديدة.

لم يدر بخلدي يوماً أن أسطر أخبار الشعراء وأصفف شعرهم على صفحات كتبي لولا أني كنت في مرحلة من بواكير الشباب مهتمّاً بلهجات المنطقة الجنوبية من البلاد السعودية وأجتهد في تأصيل مفرداتها بالفصحى فوجدتها متجذرة في الكتاب والسنة وأشعار العرب ، ولم يشذ منها إلا ما ندر.

وفي هذه الرحلة الماتعة وجدتني أتجول مع شعراء قدامى في ديار أعرف الآن رسمها وأتجول في سهولها ووديانها وأصعد جبالها، بعد أن كنت سئمت من مناهجنا الأدبية التي غيبتها وغيبت أخبار شعرائها وأهلها.

لقد رسم أبطالي هؤلاء بشعرهم خرائط واضحة المعالم لتلك البلاد بأسماء ما زالت تستخدم حتى الآن .
لم تكن تلك الروائع التي جنيتها من ذلك البحث ولكنني استمتعت بقصص لها قيمتها الأدبية الرفيعة التي كانت جديرة باهتمام الأدباء منذ القدم. بالإضافة إلى كنز ضخم من المفردات العربية التي يعتبرها البعض بأنها من سقط العامية المستهجنة.
في هذا السفر الصغير جمعت شمل شعراء تناثرت أخبارهم في كتب الأدب قديمها وحديثها، فهم من ديار واحدة وإن كانوا من قبائل متفرقة، إنهم من منطقة تعتبر الآن منطقة جنوب المملكة العربية السعودية.
ربما أنني تصرفت في سرد القصص وغلب علي فيها حبي للروايات والقصص لكنني لم أغير من صلب القصة وأحداثها شيئاً.
لا تعجب من عدم تتبعي للنهج العلمي في سرد بعض المراجع كما ينبغي، فقد انتهيت من هذا الكتاب عام ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ، ولم أوثق المراجع

بالشكل الصحيح لأنني لم أكن أقصد به بحثاً علميّاً وحينما أردت مؤخراً أن أوثق منقولاتي وجدتني أضطر إلى العودة إلى المراجع الأصلية التي نقلتها منها ولكن ذلك أصبح عسيراً لتكدس الكتب عندي على مدى سنوات النقل والترحال التي فرضتها علي الأقدار فأصبحت أبحث في مراجعي تلك بين كتبي التي في الأدراج والصناديق والحقائب والموزعة بين أكثر من مدينتين وكأنني أبحث عن إبرة في كومة قش، وحتى مللت من تكرار البحث وتأجيل الطباعة وخاصة بأنها انتظرت أكثر من عشرين عاماً من التأجيل. لذا فمثلك من يعذر واعتبرها سوالف على قارعة الأدب .

بدأت بمن أعتقد أنه أقدمهم وهو الشنفرى ثم تبعته بجاهلي مثله وفلتة في الصعلكة قريب منه حاجز الأزدي. ثم أتبعتهما بجاهلي ثالث شاعر غير صعلوك لكنه واحد من شعراء الوصف المبدعين هو معقر بن حمار البارقي . ثم رابع مثل سابقه شاعر جاهلي مقل من قوم الشنفرى بني سلامان لكنه واصف مبدع وهو عبيد بن عبدالعزى السلامي وبدأت بك في

الإسلاميين وهما سلوليان أحدهما شاعر سياسة جريء هو عبدالله بن همام السلولي وآخر شاعر الفصاحة والحكمة هو العجير السلولي، ثم ختمت بأجملهم وأعذبهم شعراً عندي هو عبدالله بن الدمينة الأكلبي.
والحقيقة فإنني لم أنصفهم كما يجب ولكن جمعتهم لأنبه أهل الاختصاص لهم ولتراثهم. متمنياً أنني لم أجن عليهم من حيث تقصيري في ضبط بعض أشعارهم أو شرحها كما يجب.

عبدالكريم بن عائض الشهراني

الشنـــــفرى

الصعلوك المعجزة

أنا السّمع الأزلُّ فلا أبالي ولو صعبت شناغيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحرٌّ ولا خمص يقصر من طلابي

هل تعرف أو هل سمعت بالشنفرى من قبل ؟

أشك أن الكثير سمع به حتى أفراد القبيلة التي ينتمي إليها، أتدري لماذا ؟

لأن مناهج التعليم في بلادنا وأقصد المملكة العربية السعودية تجاهلته وربما سكتت عنه، رغم لاميته التي تفاخر بها العرب من قبل والتي كان يحسدهم عليها العجم.

هناك من يظن بأن هذا التجاهل متعمد من قبل واضعي تلك المناهج أو مقرّيها للتركيز على بعض الفحول من شعراء الجاهلية الذين عاشوا في مناطق معينة من الجزيرة العربية وهذه مناطقية أمقتها وأمقت الخضوع لها أو التصديق بها.

دعني أتجاوز ذلك وأتحدث إليك بشيء من أخباره وطرفه فلعلك تجد شيئاً جديداً يضاف إلى حصيلتك الأدبية الراقية والموروثة من أساطين الأدب العربي الرفيع.

من هو الشنفرى[١]

هو أسطورة وشاعر من عظماء شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي الذين تناقلت العرب أخبارهم عبر القرون.

---

١. قيل سمي بالشنفرى لعظم شفتيه، انظر : أبو فرج الأصبهاني، الأغاني ، دار الفكر، ومكتبة الرياض الحديثة ، الرياض، الطبعة الرابعة، ج ٢١ ص ٢٠١ .

اختلفوا في قصة حياته حتى أصبح أسطورة خرافية. قيل: سمي بالشنفرى لعظم شفتيه. أما اسمه فكما ورد في الأغاني أيضاً فقد قيل بأنه: ثابت بن الأوس الأزدي، وقيل غير ذلك.

وهو أزدي بلا خلاف، ويقع الاختلاف في ممن هو من الأزد ؟

قال صاحب المفضليات في رواية لمؤرّج: إن الشنفرى من الأواس بن الحجر ابن عيلان[1]

أما صاحب خزانة الأدب فقد قرب نسبه وقال: إنه من بني الحارث بن ربيعة ابن الأواس بن الحجر بن الهنيء.

وغيرهم قال غير ذلك ومثله، إلا أن أغلبهم يقول بأنه من الأواس بن الحجر[2].

عاش قبل الإسلام وتوفي قبيل البعثة. يدل على ذلك أن أبا خراش الهذلي - وهو شاعر صعلوك - كان على صلة بالشنفرى وقد أدرك الإسلام وعاش حتى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه).

أما طفولته وصباه فقد طحنت في السبي وشقيت في الرق. لم يجد طعم الحياة الكريمة التي عاشها الكثير من أبناء جلدته

١. المفضل بن محمد بن يعلى الضبّي، المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة.ص ١٩٤.

٢. الحجر هو الحجر بن الهنو بن الأزد : يقال لهم هذه الأيام رجال الحجر، ويندرج تحت هذا الإسم في أيامنا قبائل كبيرة هي : بنو شهر وبنو عمر وبالأسمر وبالأحمر. وقيل: الحجر هو ابن عمران بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن إمرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد.

فقد صقلت عقليته في أتون نار القهر والظلم. وقدت عضلاته على مسالك السبل الوعرة والجبال الشاهقة.

والغريب في قصة هذا الغريب أن قصصه تاهت بين الرواة، وتلقتها أفواه القصاصين فنسجتها أخيلتهم بما يجعل قصته فاكهة سائغة للسمر وإثارة الاهتمام وشحذ الهمم. على الطريقة العربية القديمة.

واسمح لي (حفظك الله) أن أدرج بك في متاهات أصحاب كتب الأدب العربي الذين اختلفوا في قصة سبيه.

فمنها أن بني سلامان سبت الشنفرى وهو غلام فجعله الذي سباه في بهمه يرعاها[1].وهذا ما أجمع عليه صاحب الأغاني والمفضليات في رواية مؤرّج[2].

وفي المفضليات في رواية لغير مؤرّج[3]: أن الشنفرى وأمه وقعا في فهم وأن الأزد قتلت رجلاً من فهم في خفرة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمي، فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه وأسلموهم ولم يفدوهم.

١. سلامان بن مفرج بن مالك بن زهران.
٢. الأغاني مرجع سابق ، ج ٢١ ص ١٩٢ .
٣. المفضليات، مرجع سابق ، ص ١٩٦.

وقيل : بأن الذين سبوه هم بنو شبابة بن فهم[1] فلم يزل فيهم حتى افتداه بنو سلامان بن مفرج برجل من بني فهم كانوا قد أسروه، فاتخذه السلامي الذي كان في حجره ولداً وأحسن إليه وأعطاه، وذات يوم وهو في الغنم مع ابنة السلامي يرعى الغنم معها، قال لها وكان يظنها أخته: اغسلي رأسي يا أخية.

فلطمته وأنكرت أن يكون أخاها. فذهب مغاضباً حتى أتى أباها وهو الذي اشتراه من فهم فقال له:

- اصدقني القول من أنا ؟

قال الرجل:

- أنت من الأواس بن الحجر.

فقال:

- أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتموني.

وهكذا حكم الشنفرى بأن ثمن السنين التي قضاها عبداً وهو لا يدري مائة رأس رجل من القوم.(يا له من ثمن باهظ).

١. فهم : بطن من أزد شنوءة وهم بنو فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبدالله بن زهران بن كعب ؟؟؟

ثم لزم الشنفرى ديار فهم واتخذ منهم رفاقاً يغيرون معه على أرجلهم أحياناً وأحياناً يغير وحده على بني سلامان وما زال يقتل فيهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً[1].

وهناك رواية أخرى لقصة الشنفرى تقول : إن بني سلامان سبت الشنفرى وهو أحد بني ربيعة بن الحجر وهو غلام فجعله الذي سباه في بهمه يرعاها مع ابنة له، فلما خلا بها أهوى ليقبلها فصكّت وجهه ثم سعت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليه ليقتله فوجده وهو يقول:

ألا هل أتى فتيان قومي جماعة	بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي	ونسبتها ظلّت تقاصر دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها	وأمي ابنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أروم الودّ بيني وبينها	يؤمُّ بياض الوجه مني يمينها

فلما سمع قوله استحسنه وسأله ممن هو؟ فقال :

– أنا الشنفرى، أخو بني الحارث بن ربيعة.

وكان أقبح الناس وجهاً، فقال الرجل:

١. انظر الأغاني ــــ مرجع سابق ــــ ج ٢١ ص ١٧٩ ، وانظر الحماسة ص ١٨٧.

- لولا أني أخشى أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي.

فقال الشنفرى : علي إن قتلوك أن أقتل بك مائة رجل منهم.

فأنكحه ابنته وخلاّ سبيله . فسار بها إلى قومه فشدّت بنو سلامان من خلفه على صهره فقتلوه، فلما بلغه ذلك سكت ولم يظهر جزعاً عليه وطفق يصنع النبل ، ويجعل أفواقها من القرون والعظام، وكانت نار الثأر والقهر تتوقد في جوف زوجته وهي ترى أن الشنفرى لم يف بوعده لأبيها الذي قتل من أجل زواجها به، وأنه لا زال يدور حولها ويكتف بصنع الأفواق التي لا تدري ما يصنع بها. فقالت له ذات يوم :

- لقد خست بميثاق أبي عليك (أي لم تف به)

فرد عليها شعراً بقوله:

كـأن قد فـلا يغـررك مـن تمكُّثي سلكت طريفاً بين يربغ فالسَّرْدِ [1]

وإني زعيـم أن تثـور عجاجتي على ذي كساءٍ من سلامان أو بُرد

وأمشي لدى العصداء أبغي سراتَهم وأسلك خلاً بين أرفاع والسرد

هـم عـرفوني ناشئاً ذا مخيلةٍ أمشّي خلال الدار كالفرس الورد [2]

كأني إذا لم يمس في الحي مالك بتيهاء لا أهدي السبيل ولا أهدي

١. يربغ والسرد: موضعين.
٢. الفرس الورد: الأحمر.

ثم غزاهم فجعل يفتك بهم واحداً تلو الآخر، وكانوا يعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً.

صعلكته :

تعرّف العامة معنى الصعلكة ما تعرّفه قواميس اللغة بأن الصعلوك هو الذي لا مال له . ومما يروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يستفتح بصعاليك الصحابة، أي يستنصر بهم.

إلا أن الصعلكة تعني أيضاً شيئاً آخر حيث صارت تطلق على الشجعان ذوي الشهامة والكرم.

يقول المتنبي يصف بطولة الحمدانيين:

متصعلكين على كثافة ملكهم   متواضعين على عظيم الشان

في الجاهلية عرف الصعاليك بأنهم كانوا فقراء يغزون لينهبوا ويسلبوا، وكان فيهم من كان ينهب من الأغنياء فيعطيه الفقراء كما كان يفعله أستاذهم عروة بن الورد والذي قال الخليفة عبد الملك بن مروان عنه متمنياً: ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله :

١. انظر :ابن منظور، لسان العرب، ،مادة صعلك .

وإني امـرؤ عـافي إنـائـي شركةٌ وأنـت امـرؤٌ عـافي إنـائـك واحـدُ

أتـهـزأ مني أن سمنتَ وأن ترى بجسمي مسَّ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أمـزق جسمي في جسوم كثيرةٍ وأحسـو قـراحَ المـاء والمـاءُ بارد

لقد ترعرع الشنفرى بنفسية مضطربة وبشعور ثائر ، صقلته حياة أترعت بالظلم وطفولة خضعت للأسر والمهانة، حتى أصبح وهو يافع لا يفكر إلا في الانتقام وإثبات الذات، ورفع القهر ، وأكل المال بالقوة، ولم يكن لهذه الطبائع السباعية أن تظهر جبروتها إلا تحت تدريب محترف وقاس، وكان للشنفرى ما تمنى فقد انضم إلى أحد عتاة الصعلكة في زمانه والذي عرفته الفيافي والقفار وسارت بذكره الركبان، إنه تأبط شرّاً، فقد رأى الأخير الشنفرى وما يتمتع به من شجاعة نادرة وقوة فائقة وسرعة مذهلة وإباء ووفاء نادرين، فرباه على سلوكه، ونشّأ فيه حب الصعلكة والفتك منذ نعومة أظفاره.

وجد الشنفرى أن حياة الصعلكة وما فيها من حرية مطلقة، وما فيها من قدرة غير مقيدة، تكفل له الخروج على كل من أهانه واستعبده ، والانتقام لنفسه ولأمه والترفع حتى على تلك القبائل التي تعتز بنسبها وجبروتها.

شـعره:

في غمرة جموحه وثورته على نفسه والمجتمع من حوله وشعوره بالظلم ونبذ القبيلة له لم يكن الشنفرى لينسى أن يترفع بنفسه عن سفاسف الأمور ومحقراتها، ناشراً فكره في شعر ناصع البيان جيد الحبك شريف المعاني ، حتى أصبح من حر الكلام ورفيع الأدب.

عرف الشنفرى صعلوكاً شاعراً غير أن شعره كان متميزاً باعتزازه بنفسه كثيراً، كما تميز شعره بنقل صورة ناصعة للرجل الشهم ذي الخلال العربية الأصيلة التي تكون مقياساً للكمال عند أهل بلاده لولا أنه أسرف في القتل وصار له خلة يتندر بها ، وفي لاميته المشهورة ما يغني عن الاسترسال.

قيل بأن أول شعر قاله بيتان قالهما وهو صغير حينما رأى أمه تولول تبكي أخاً له صغيراً فقال:

ليس لوالــدة همهــا   ولا قيلها لابنهــا دَعْ دعِ

تطوف وتحذر أحواله   وغيرك أملك بالمصرع

ويخبرنا بأنه لا يخشى الموت بل إنه يترقبه كل حين، ويهزأ من الحذر الذي يوصيه به أصحابه :

يا صاحبيّ هل الحذار مسلم أو هل لحتف منية من مصـــرَفِ

إني لأعلم أن حتفي في التي أخشى لدى الشُّرب القليل المنزفِ

ورغم أنه اشتهر بشدة عدوه وأنه كثيراً ما كان يغزو على قدميه إلا أنه امتلك حصاناً أسماه اليحموم وصفه قائلاً:

ولا عيب في اليحموم غير هزاله على أنه يوم الهياج سمينُ

وكم من عظيم الخلق غير موثقٍ حواه وفيه بعد ذاك جنونُ

وفي أحد الأيام طلبته زوجته بأن يبقى معها ويؤانسها فرد عليها قائلاً :

لا تحسبيني مثل من هو قاعدٌ على عشـــةٍ أو واثـــق بكســاد

إذا انفلتت مني جوادُ كريـمٍ ثبتُّ فلم أخطئ عنان جوادي

افتخاره بنفسه :

كثير أولئك الشعراء الذين يصيحون بأعلى أصواتهم ليسمعونا شعرهم مليئاً باعتزازهم بأنفسهم وافتخارهم بشجاعتهم، إلا أني وجدت الشنفرى من أولئك القلائل الذين يقولون ويفعلون ، وتطابق أفعالهم أقوالهم، وما نقل إلينا من أخباره تدل على صدق أقواله .

يقول في إحدى قصائده :

أنا السّمع الأزلُّ فلا أبالي ... ولو صعبت شناغيب العقاب[1]

ولا ظمأ يؤخرني وحرٌّ ... ولا خمص يقصر من طلابي

وفي قصيدة أدعو الله أن يسعفك فيها وفي باقي قصائده بمعجم عربي فصيح لتفهم ما يقول، يقول يفاخر بشجاعته:

ومرقبة عنقاء يقصر دونها ... أخو الضروة الرّجل الخفي المخفّف[2]

نميتُ إلى أعلى ذراها وقد دنا ... من الليل ملتفُّ الحديقة أسدفُ[3]

فبتُّ على حدّ الذراعين أحدباً ... كما يتطوّى الأرقم المتعطّف[4]

قليل جهازي غير نعلين أسْحقت ... صدورُهما مخصورة لا تُخْصَفُ[5]

ومِلْحَفةٍ دَرْسٍ وجَرْدٍ مُلاءةٍ ... إذا نهجت من جانبٍ لا تكفّفُ[6]

وأبيض من ماءِ الحديد مهنّدٌ ... مِجذٌّ لأطراف السّواعد مِقْطف[7]

وصفراء من نبعٍ أبيٍّ ظهيرةٌ ... تُرِنُّ كإرنان الشجيِّ وتهتف[8]

إذا طال فيها النزع تأبى بعَسجها ... وترمي بذَرْويها بهنّ فتقذف[9]

كأنّ حفيف النّبل من فوق عسجها ... عوازبَ نحلٍ أخطأ الغار مطنف[10]

١. الشناغيب جمع شنغب وهو الطويل من جميع الحيوان.
٢. المرقبة : المكان المرتفع للمراقبة. عنقاء : طويلة . الضروة : الخفية . (يعني : رب مكان عال لا يستطيع أن يصل إليها الرجل الخفيف في الخفاء).
٣. أي تسلقت إليها بعدما دنا الليل.
٤. يتطوى : ينطوي ./الأرقم : الثعبان./المتعطف : الملتف بعضه فوق بعض.
٥. أسحق : أبليت ./مخصورة: دقيقة الوسط./لا تخصف: لا تقبل الخرز.
٦. درس: يقال دارسة أي بالية./الجرد: البالي.
٧. وأبيض من اماء الحديد: يعني سيفه أي أنه من حديد صاف كالماء./مجذّ: قاطع/مقطف: من القطف أي القطع.
٨. صفراء : يعني قوسه صفراء./النبع: نوع من الشجر يتخذ منه الأقواس لصلابته./ظهيرة: معينة./ترن: يخرج منها صوت رنّان عند إطلاقها. شبهها بصوت العاشق الولهان.
٩. عسجها: العسج مقبض القوس./ذويها: طرفيها.
١٠. عوازب نحل: ذواهب نحل./مطنف: مرتفع في رأس الجبل.

نـأت أمُّ قيسِ المربعين كليهما ... وتحـذر أن ينـأى بها المتصيَّف[١]

وإنـكِ لو تدرين أن رُبّ مشربٍ ... مخوفٍ كداءِ البَطن أو هو أخوف

وردْت بمـأثـورٍ ونـبـلٍ وضـالّـةٍ ... تخيرتُها مما أريشُ وأرصُـف[٢]

أركّبـهـا في كـلّ أحـمـر عاترٍ ... وأقـذف منهن الـذي هو مُقرف[٣]

وتابعت فيه الـبرْي حتى تركته ... يـرفُّ إذا أنـفـذتـه ويـزفـزف[٤]

بكفي منها للبغيض عُراضة ... إذا بعت خـلاً مالـه متخوَّف[٥]

ووادٍ بعيدٍ ضَـنْـكٍ جِمـاعـهُ ... بـواطنـه لـلجـنِّ والأُسْـد مالف

تعسّفْت منه بعدما سقط الندى ... غماليل يُخشى غِيلها المتعسِّف[٦]

وإني إذا خام الجبان عن الرّدى ... فلي حيث يخشى أن يجاوز مُخسَف[٧]

وإنِ امـرأً أجـار سعد بن مالكٍ ... عليّ وأثـوابِ الأقيصرِ تَعْنف[٨]

وفي قصيدة أخرى يفتخر بإحدى غزواته وهو يفتك بأعدائه ويصف رميه بنبله وصفاً دقيقاً فيقول:

وكفٌّ فتى لا يعرف السلخ قبلها ... تجـورُ يـداه في الإهـاب وتخرج[٩]

ومستبسلٍ ضافي القميصِ ضَغَتُّه ... بـأزرق لا نِكسٍ ولا متـعـوّج[١٠]

١. منع أمُ قيس من الصرف للضرورة./المربعين: الشتاء والصيف./المتصيّف: اسم زمان من تصيّف.
٢. مأثور : السيف المؤثر. الضالة: يطلق على السلاح عامة أو السهام خاصة./أريش: رأس السهم وضع عليه ريشاً./أرصف: رصف السهم شد على مدخل نصله.
٣. العاتر: الشديد./المقرف: السيء.
٤. يزفزف: الزفزف شدة الجري، أو حركة الحشيش وصوته عند مهبّ الريح ، وهو يشبهها بالطائر إذا رمى نفسه وبسط جناحيه.
٥. عراضة: هدية وهو هنا يتهكم بها.
٦. المتعسف: تعسفت : مشيت على غير هدى./غماليل : الأودية كثيرة الشجر الملتف./غيلها: الغيل الماء الجاري في الوادي بعد السيول./الأجمة: موضع الأسد.
٧. خام الجبان: خاف الجبان وجبن./مخسف: خسف الطريق قطعه.
٨. سعد بن مالك: عدو له./الأقيصر: صنم أقسم به.
٩. الإهاب : الجلد.
١٠. ضافي القميص: أي طويل القميص./ضغتّه : من الضغت وهو اللوك بالأنياب./الأزرق: السهم.

عليه نساريٌّ على خوطِ نبعه — وفوقٌ كعرقوب القطاةِ مُحدرَج[1]

وقاربت من كفيّ ثم فرجّتُها — بنزع إذا ما استُكره النزع مُخلج[2]

فصاحت بكفي صيحةً ثم رجّعت — أنين الأميم ذي الجراح المشجّج[3]

أعذب ما قال:

لم تستطع زوجة الشنفرى أميمة ويكنيها هو بأم عمرو أن تبقى مع هذا الوحش الذي لا يدع غارة حتى يتبعها بغارة أخرى، تترقب كل يوم متى ينعونه إليها، يبيت في الجبال والشعاب ويقدم بشعثته وغبرته بل وقذارته التي يتباهى بها في لاميته، وهو الذي يعير كل من يبقى مع زوجته أو يأنس بها، ولكن مع هذا وجدنا له قلباً رقيقاً استطاع أن يتحرك ويلين ولكن لم يلن إلا بعد أن اكتوى بالفراق والتاع بالهجران، فوجدناه يسكب لنا أبياتاً عذبة لم أعهدها في قصائده، ورغم هذا فالطبع - غالباً - يغلب التطبع، فقد ختمها بالقتل وذكر الثأر وكأنه لم يشأ أن يبدو ضعيفاً بالحب والنوى، غادرت زوجته إلى أهلها لتلقنه درساً في الحب وحاجة الرجل مهما كانت قسوته إلى حنان الأنثى التي أخيراً خرجت من بين ثنايا قصائد الصعلوك الشنفرى ولكن لم يكن ليدع قصيدة عذبة تخرج منه إلا وقد ختمها:

١.نساريّ: عليه ريش نسر./خوط: غصن./نبع: شجر صلب تؤخذ منه السهام./وفوق: الموضع من السهم الذي يثبت فيه الوتر ./المحدرج: الأملس.
٢. مُخلج: من أخلج يعني انتزع.
٣. الأميم المشجج: المضروب على أم رأسه فشُجّ.

ألا أم عمروٍ أجمعت فاستقلّتِ ... وما ودّعت جيرانها إذ تولّت[1]

وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها ... وكانت بأعناق المطيِّ أظلّتِ

بعينيَّ ما أمست فباتت فأصبحت ... فقضّت أموراً فاستقلّت فولّت[2]

فوا اكبدا على أميمة بعدما ... طعمتُ فهبها نعمة العيش زلّت

فيا جارتا وأنت غير مليمةٍ ... إذا ذُكرت ولا بذات تقلُّت[3]

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها ... إذا ما مشت ولا بذات تلفُّت[4]

تبيت بُعيْد النوْم تُهدي غبوقها ... لجارتها إذا الهدية قلّت[5]

تحلُّ بمنجاةٍ من اللوم بيتَها ... إذا ما بيوتٌ بالمذمّة حلّت

كأنّ لها في الأرض نسْياً تقصُّه ... على أمّها وإن تُكلِّمك تبلَت[6]

أُميمة لا يُخزي نثاها حليلَها ... إذا ذُكر النُّسوان عفّت وجلّت[7]

إذا هو أمسى آب قرة عينه ... مآب السَّعيدِ لم يسَلْ أين ظلّت

فدقّت وجلّت واسبكرّت وأُكمِلت ... فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسن جنّت[8]

فبتنا كأنّ البيت حُجّر فوقنا ... بريحانةٍ ريحت عشاءً وطلّت[9]

بريحانةٍ من بطن حلية نورت ... لها أرجٌ ما حولها غيرُ مسنِتِ[10]

---

١. أجمعت : أجمعت أمرها وعزمت عليه./استقلّت: غادرت.
٢. قضّت: أنجزت/أموراً: حاجات
٣. غير مليمة: لا تلام على فعل لها./تقلّت: كراهية في الفعل.
٤. لا سقوطاً قناعها: من احتشامها لا يسقط قناعها من فوق رأسها./والقناع : هو الخمار.
٥. غبوقها: الغبوق اللبن يشرب في المساء والصبوح: اللبن يشرب في الصباح.
٦. تقصه: تبحث عنه./أمها : قصدها /تبلت: تختصر حديثها حياءً وخشية الحرج.
٧. نثاها: حديثها./حليلها: الحليل الزوج. /جلّت: عظمت.
٨. دقّت: أي دقت محاسنها./جلّت: جلت في خلقها./اسبكرّت: طالت وكملت أعضاؤها.
٩. وصف رائحتها بالريحانة./ريحت : هبت عليها الريح./طلّت: نزل عليها الطل.
١٠ بطن حلية: نوع من النبات له رائحة طيبة./نورت: خرج نَوْرها وهو الزهر./مُسْنِت: مجدب.

ثم ودّع أبيات الأنين والتوجع والحب إلى الحرب والقتل والثأرات فقال في نفس القصيدة:

وباضعةٍ حمر القسيِّ بعثتها	ومن يَغْزُ يغنم مرةً ويشمّت[1]
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل	وبين الجبا هيهات أنشأت سُربتي[2]
أمشِّي على الأرض التي لم تضرّني	لأنْكيَ قوماً أو أصادفَ حُمّتي[3]
أمشّي على تلك الغزاة وبعدها	يقربني منها رواحي وغدوتي
وأمُّ عيالٍ شهدت تقوتُهم	إذا أطعمتهم أوْتَحَتْ وأقلَّت[4]
تخاف علينا العِيل إن هي أكثرت	ونحن جياعٌ أيُّ آلٍ تألَّت
مصعلكةٌ لا يقصر السترُ دونها	ولا ترتجي للبيت إن لم تبيّت[5]
لها وفْضةٌ فيها ثلاثون سيحفاً	إذا آنست أولى العِدا اقشعرّت[6]
وتأتي العِدا بارزاً نصف ساقها	تجول كعير العانة المتلفّت
إذا فزعوا طارت بأبيض صارمٍ	وراحت بما في جفرها ثم سلّت[7]
حسامٌ كلون الملح صافٍ حديده	جرازٌ كأقطاع الغدير المنعّت
تراها كأذناب الحسيل صوادراً	وقد نهلت من الدماء وعلّت[8]
قتلنا قتيلاً مهدياً بملبّدٍ	جمار منىً وسط الحجيج المصوّتِ[9]

١. في هذا البيت عاد لطبعه فهو يصف غزوته مع الصعاليك /باضعة : هنا الغزاة ومعنى باضعة: قاطعة./حمر القسي: القسي الرماح. /احمرّت: من الشمس من كثرة الغزو.
٢. مشعل والجبا : اسمي موضعين./سربتي: جماعتي.
٣. أنكي: من النكاية بهم./أصادف حمتي: ألقى منيتي.
٤. أم عيال كناية عن ربة البيت وهو يقصد هنا تأبط شراً لأنه كان أميرهم والقائم على طعامهم في تلك الغزوة.
٥. مصعلكة: أم الصعاليك./لا يقصر الستر دونها: لا تستر أمرها.
٦. وفضة: جعبة./السيحف: النصل المذلق الحاد./اقشعرّت: تهيأت للقتال.
٧. أبيض صارم: السيف./جفرها: الجفر هو الكنانة.
٨. الحسيل : جمع حسيلة ، شبه السيوف بأذناب أولاد البقر.
٩. مهدياً: محرما./المصوت:الملبي.

جزينا سلامان بن مفرّج قرضَها ... بما قدّمت أيديهم وأزلّتِ

وهنّئ بي قومٌ وما أن هنأتُهم ... وأصبحتُ في قومٍ وليسوا بمنبتي[١]

شفينا بعبدالله بعض غليلنا ... وعوف لدى المعدى أوان استهلّتِ[٢]

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ... ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي

ألا لا تعدني إن تشكيت خُلّتي ... شفاني بأعلى ذي البريقين عَدْوتي[٣]

وإني لَحُلْوٌ إن أُريدت حلاوتي ... ومرٌّ إذا نفس العزوف استمرّت[٤]

أبيٌّ لما آبي سريع مباءتي ... إلى كل نفسٍ تنتحي في مسرّتي

غارته على العوص:

كما ذكرت سابقاً بأن الشنفرى كان أحد أهم أعضاء فريق تأبط شرّا، وكثيراً ما كان يشاركه غزواته لذا فإننا نجد شيئاً من سيرته حينما نقرأ لتأبط شرّاً.

وهذه الغارة ذكرت في أخبار تأبط شرّاً ولم أجدها في كتب الأدب القديمة التي تحدثت عن الشنفرى.

وتعتبر قصيدة الشنفرى السجل التاريخي لأحداث هذه الغارة حيث ذكر فيها العدد والنتائج وما حصل فيها.

١. ليسوا بمنبتي: أي ليسوا بأهلي
٢. المعدى: موضع القتال./استهلّت: ارتفعت الأصوات.
٣. لا تعدني: أي لا تزرني./خلّتي: أخلائي.
٤. استمرّت: من المرارة.

في رابعة النهار وفي يوم شات تتطارد فيه الغيوم في سماء بني فهم اجتمع ثمانية من الصعاليك تحت شجرة وارفة الظلال وقد توشح أربعة منهم أقواسهم على أعتاقهم بينما مد ثلاثة سيوفهم أمامهم أما الرابع فلم يعجبه رمحه إلا مرتكزاً بجانبه في أرض صلبة لا يخترقها إلا مثل رمحه.

لا يتخلف أبرزهم عن الصدارة والأمر والنهي فهو الذي دوّخ القبائل وله فيهم صولاته وجولاته في بلادهم وما حولها إنه الأبرز تأبط شراً. أما أميرهم هذه المرة فقد رشحوا عامر بن الأخنس.

وكان في القوم تلميذه الأسطورة الشنفرى وأخواه السمع وكعب والمسيب بن كلاب وعمرو بن براق ومرّة بن خليف.

هذه المرة كانت الوجهة العوص في بلاد بجيلة[1].

لم يكونوا يسيرون بين القرى والأحياء بل يتسلقون الجبال ويخترقون الأودية ، لا تقنعهم الغنائم التي يجدونها أمامهم إما لأنها لا تشبعهم ولا ترويهم، أو لأنها لأقوام لا يريدون أذاهم، حتى إذا وصلوا العوص في آخر ساعة من العشي رقوا إلى أقرب مطالع تشرف عليهم ولبطوا بالأرض يراقبون حركة القوم فرأوا القوم في غفلة والإبل السمان تروح إليهم وقد أخذ الرجال والنساء القدور

١. ينسبون إلى أمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وهم أبناء أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهم إخوة لأقيل وهو خثعم. (انظر إلى نسب معد واليمن الكبير لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي ، تحقيق د. ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج١ ص ٣٤٣).

يحلبون ؟؟؟؟؟ وليس من الفوارس عندهم إلا قليل. انتظر الغزاة حتى إذا أرخى الظلام سدوله على الأرض من حولهم.ودخل الناس إلى بيوتهم آمنين مطمئنين ليس من أحد في الخارج إلا امرأة تحلب غنمها أو راع يؤوي بعضها. صاح ابن الأخنس في سريته فهجموا على أقدامهم يضربون الأرض بها وسيوفهم ونبالهم ترتعد في أكفهم. خرج عليهم بعض من خرج من الفوارس والراجلين لكنهم كانوا تحت وطأة المفاجأة وضراوة الهجوم واستبسال الصعاليك وسطوتهم.

فما انقشع الغبار حتى سقط مقتولاً على الأرض فارسان من العوص وراجلٌ يتشحّط في دمه.

ارتفع العويل وبين الرجال امرأتان قيدت أيديهما تساقان سبيتين مع الإبل ونشيجهما يقطع نياط القلب الحي.

ركب الثمانية على الإبل وساقوا غنيمتهم مع المرأتين بلا رحمة وانطلقوا مسرعين نحو ديارهم فرحين بسلامتهم فرحهم بغنيمتهم.

وخلطوا النهار بالليل فلما قربوا من ديارهم ولم يبق لهم إلا يوم وليلة منها وفيما هم يتنفسون الصعداء قرب جبل مرتفع إذ صاح فيهم أحدهم أن القوم قد أدركونا .

قاموا ليستطلعوا الخبر حاملين سلاحهم شادين عزمهم فإذا هم بأربعين رجلاً من خثعم[1] وبطن من بجيلة يقال لهم قسر وعلى رأسهم أبي بن جابر الخثعمي .

أمرهم أميرهم أن يتوقفوا وحازوا إبلهم وألجؤوها إلى الجبل . ثم التفوا ليتشاوروا في الأمر ، فالعدد بالنسبة لهم كبير وخثعم طالما تبحث عنهم لثأرات عندها ، وربما أنهم لحقوا بهم للثأر لبجيلة.

قالوا لرئيسهم عامر بن الأخنس : ماذا ترى ؟

تنفس وهو يجيل النظر بين أصحابه والقوم ثم قال: لا أرى إلا صدق الضراب، فإن ظفرتم فذاك وإن قتلتم كنتم قد أخذتم بثأركم.

(ولعلهم أرادوا بثأرهم من بجيلة التي قتلت صاحبيهم من قبل عمرو بن كلاب وسعد بن الأشرس) . ثم التفت إلى تأبط شرّاً ليرى رأيه فلم يتأخر عنه في الحديث وقال: وإذا كان قد أجمع رأيكم على هذا فإني أرى أن تحملوا على القوم حملة واحدة فإنكم قليل والقوم كثير، ومتى تفرقتم (أي في الغارة وأتيتم القوم من كل مكان) كثّركم القوم.

١. خثعم هو أقيل وقيل أفتل بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، سمي بخثعم بجمل كان له اسمه خثعم، وقيل اسم جبل تحالفوا عليه فنسبوا إليه وقيل غير ذلك، جاء لخثعم حلف ومن حلف عفرس وولد لعفرس شهران العريضة وناهس وكود وربيعة أبو أكلب (انظر كتابنا قبيلة شهران بين الماضي والحاضر ، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ص ٩)

أما االشنفرى فقد بادرهم مفتخراً بهم ليشد عزمهم على القتال وكأنه لا يريد أن يقول إلا شعراً:

نحن الصعاليك الحماةُ البزّل إذا لقينا لا نُرى نُهلّل

وتبعه مرة بن خليف أيضاً يقول:

يا ثابت الخير ويا ابن الأخنس ويا ابن برّاق الكريم الأشوسِ

والشنفرى عند حيود الأنفس أنا ابن حامي السرِّب في المغمّس

ثم قال السمع أخو تأبط شرّا:

يا قوم كونوا عندها أحرارا لا تسلموا العُون ولا الأبكارا

ولا القناعيس ولا العشارا لخثعم وقد دعوا غِرارا

ساقوهم الموت معاً أحرارا وافتخروا الدهر بها افتخارا

وقال أخوه كعب:

يا قوم إذ لقيتم فاصبروا ولا تخيِّموا جزعاً فتدبروا

لم تطل مدة المشاورات فقد حملوا عليهم وارتفع الصياح وصهيل الخيل فتفرق الصعاليك من كل جهة على الأربعين وكأنهم صقور تنقصض على طرائدها، واستخدموا الكر والفر وإذا حمي الوطيس بينهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتلوا نفراً منهم ، ثم حملوا

١. القناعيس : جمع قنعاس وهو العظيم من الإبل.

عليهم ثانية فقتلوا منهم ثم حملوا عليهم ثالثة فانهزم قوم حاجز الخثعمي وتفرقوا.

وانقشعت غمامة المعركة ولم يقتل من الثمانية أحد وبقيت غنيمتهم عندهم فركبوا وساقوا الإبل إلى ديارهم.

فقال تأبط شرّاً في ذلك:

جزى اللّه فتياناً على العوص أمطرت ... سماؤهم تحت العجاجة بالدم

وقد لاح ضوء الفجر عرضاً كأنه ... بلمحته إقراب أبلق أدهم[1]

وإن شفاء الداء إدراكُ ذَحْلةٍ ... صباحاً على آثار حوم عرمرم[2]

وضاربتهم بالسفح إذ عارضتهم ... قبائل من أبناء قسر وخثعم

ضِراباً عدا فيه ابن حاجز هارباً ... ذُرا الصخرِ في جوف الوجين المديم[3]

وقال تأبط شرّاً أيضاً :

أرى قدميّ وقعهما خفيفٌ ... كتحليل الظليم حَدا رِئاله[4]

أرى بهما عذاباً كلّ يومٍ ... بخثعم أو بجيلة أو ثماله[5]

وقال الشنفرى:

دعيني وقولي بعد ما شئت إنني ... سيُغدى بنعشي مرة فأغيبُ

خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ... ثمانية ما بعدها متعتب

---

١. القناعيس : جمع قنعاس وهو العظيم من الإبل.
٢. إقراب : دنو . أبلق : مهر أبلق وهو ما فيه بياض وسواد. الأدهم : الأسود.
٣. ذحلة : ثأر. حوم : جماعة . عرمرم: كثير.
٤. الوجين : شط الوادي. المديّم: المطمور.
٥. التحليل : ضرب من المشي . الظليم: ذكر النعام. رئاله: جمع رأل وهو ولد النعام
٦. ثمالة : بطن من الأزد وهو عوف بن أسلم بن كعب.

سـراحـين فتـيـان كـأن وجوههم ... مصابيحُ أو لونٌ من الماء مُذهبُ[1]

نمرّ برهو الماء صفحاً وقد طوت ... ثمـائلـنـا والـــزاد ظـنٌّ مغيّب[2]

ثلاثاً على الأقدام حتى سما بنا ... على العوص شعشاعٌ من القوم محْرَبُ[3]

فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا ... وصـوّت فينا بالصباح المثّوب[4]

فشنّ عليهم هـزّة السيف ثابتٌ ... وصمّم فيهم بالحسام المسيّب

وظـلـت بفـتـيـان معـي أتـقـيـهـمُ ... بـهـنّ قـلـيـلاً سـاعـة ثـم جنّبوا

وقـد خـرّ منهم راجـلان وفارس ... كـمـيّ صـرعـنـاه وحــوّم مسلّب[5]

يـشـقّ إلـيــه كـل رَبــعٍ وقـلـعـةٍ ... ثـمـانـيـة والـقـوم رَجــلٌ ومِقْنب

فلما رأونــا قومنا قيل: افلحوا ... فقلنا: اسألوا عن قائلٍ لا يكذب

وقال الشنفرى أيضاً:

ألا هـل أتـى عنـا سـعـاد ودونها ... مـهـامِـهُ بِـيّـد تعتلي بالصعالكِ

بأنّا صبَحنا القوم في حُرِّ دارهم ... حِمامَ المنايا بالسيوف البواتكِ

قتلنا بعمروٍ منهم خير فارسٍ ... يزيد وسعداً وابـن عـوف بمالك

ظلَلْنا نفرّي بالسيوف رؤوسهم ... ونرشقهم بالنبل بين الدكادك

١. سراحين : جمع سرحان وهو الذئب.
٢. الرهو:المكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء./ثمائلنا:جمع ثمالة وثميلة : قيل الماء القليل يبقى في أسفل الحوض أو السقاء، وقيل:البقية من الطعام أو الشراب الذي يبقى في البطن.
٣. العوص: المكان الذي وقعت فيه المعركة./شعشاع : متفرق.
٤. هجهجوا : الهجهجة الصياح ./المثوّب : ثوّب : رجع.
٥. كميّ : شجاع.

غزوه على بني سلامان:

خيّم الظلام على ثلاثين غازياً من فهم وعمه صاحبنا الشنفرى يتبع أستاذه تأبط شرّاً يريدون الغارة على بني سلامان، كان الطقس دافئاً والقمر هلالاً لا يرى منه على الأرض إلا بصيص من نور، فلما قربوا من بني سلامان باتوا بوادٍ يقال له مشعل، لم يكونوا كصعاليك يأمنون أي شيء حتى أنفسهم وخاصة أن تأبط شرّا قد زرع فيهم أقصى حالات الحذر والترقب، بل إن حاستي السمع والشم عندهم في أقصى درجة الحساسية.

تفرقوا في الوادي يستطلعون وينظرون ما حولهم فبينما هم فيه والظلام يخيم عليهم إذ سمعوا يعار غنم غير بعيد منهم فعلموا أن قربه إنساناً . اقترب اثنان منهم إلى حيث الصوت فإذا بذئب يتسلل إلى الغنم وفي لحظة انخرط إلى الأرض في قترة وضعت فخّاً له. صاح شابٌ كان يراه ولا يراهما فرحاً بسقوط الذئب في الفخ الذي حفره للذئب وما أن وصل إلى حافة القترة ينظر في صيده يريد أن يرسل عليه سهماً يقتله إذ بالرجال حوله.

فعلم أنهم قاتلوه فقفز نحو القترة فانحطّ في القترة مع الذئب. وبدون رحمة أرسلوا عليه سهامهم فقتلوه مع ذئبه.

ثم أخرجوه من القترة لعلهم يعرفونه، فقال رجل منهم يدعى مرة الفهمي : هذا والله ابن الأفطس وأنتم والله متبعون.

فانصرفوا مسرعين يتوجسون حتى مروا بأسفل الوادي فوجدوا غنم الغلام الذي قتلوه فأخذوا منها شويهات فذبحوها وكان الليل شديد البرد فأكلوها ثم ساروا ليلهم حتى أصبحوا في ظل جبل كبير، فناموا بعد جهد نالهم ليلتهم. وكان تأبط شرّاً قد التمس الشمس في طرف الجبل فتمدد ونام فيها.

وبينما هم في نومتهم كان أهل الغلام الذي قتلوه يتبعونهم حتى أدركوهم تحت الجبل فأشار الأفطس أبو الغلام المقتول إلى حيث القوم ، وكان أكثر الصعاليك وضوحاً لهم رأوا تأبط شراً الذي كان في طرف الظل نحو الشمس فعرفوه بقدميه فقد كانت إصبعان من أصابعه متلصقتين . وكانت العرب تعرف شدة حرص تأبط شرّا وأن نومه كنوم الذئب عين نائمة والأخرى يقظة.

فقال أبو الغلام : هذا تأبط شرّاً نائماً فأطيعوني وانصرفوا فلو شعر بكم لأنذر قومه فوثبوا عليكم.

فانحرفوا نحو الجبل يتذرون به لعلهم يأخذون القوم على غرة حتى إذا قربوا منهم سقط من على الجبل قوس أحدهم فصلّ

وتره وسمعه تأبط شرّاً فصرخ بأصحابه : يعاط يعاط . وهي كلمة يستخدمها العرب في الإنذار . وشاغل العدو حتى نهض أصحابه و أقبلوا على سلاحهم فغشيهم الأزديون واقتتلوا قتالاً شديداً وأوسع الفهميون الأزديين شرّاً ولغباً وفشت الجراحات بين الفريقين .

أكثر الشنفرى من غزوه لقومه حتى أنه قيل بأنه قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً ، كان إذا لقي ضحيته صوّب سهمه وقال: أأطرفك ؟ ثم يرميه في إحدى عينيه، ذات مرة أقعدوا له ليقتلوه فلما جاءهم للغارة انتبه لهم فهرب منهم فلحقوه فلم يدركوه فأرسلوا كلباً يدعونه: (حُبَيِّش) لكنه لم يدركه، فمرّ بقرية يقال لها: دحيس، فرأى فيها اثنين من بني سلامان كان يتمنى قتلهما، لكن فراره أعجله فلم يتمكن من قتلهما فقال في ذلك:

قتيلا فجارٍ أنتما إن قتلتما	بجنب دحيس أو تبالة تسمعا

ومما قاله وهو يطالب بني سلامان:

فإلا تزرني حتفتي أو تلاقني	أمشِّ بدهْرٍ أو عذاف فنوّرا[1]
أمشّ بأطراف الحماط وتارةً	تنفّض رجلي بَسْبُطاً فعصَنْصرا[2]
وأبغي بني صعب بن مرة بلادهم	وسوف ألاقيهم إن الله يسرا
ويوماً بذات الرأس أو بطن منجل	هنالك تَلقى القاصي المتغوّرا[3]

١. حتفتي : موتتي./عذاف وفنوّر : موضعان.
٢. الحماط: قيل التين الجبلي وقيل غير ذلك. والحماط يطلق هذه السنين في بلاد شهران وما حولها على التين/سبط وعصنصر: موضعان.
٣. ذات الراس ومنجل : موضعان./المتغوّر: الموغل في الأرض.

لامية العرب

سألت عدداً كبيراً من شبابنا عن لامية العرب فلم يعرفوها ، بل إن الكثير من المثقفين الذين لا يعنون بالأدب العربي كثيراً يجهلونها جهلهم بالواق الواق ، مع أن هذه اللامية كانت يوما مفخرة للعرب بل كانت موقع حسد العجم على العرب فصنعوا لامية تحاكيها عند فارس.

هذه اللامية التي نظمها الشنفرى أخذت من الاهتمام ما لم تأخذه قصيدة أخرى سوى المعلقات على ما أعلم وخاصة من الشروح فقد أخذت نصيب الأسد بين القصائد وشرحت حتى قبل خمسة عشر عاماً وهو الزمن الذي جمعت فيه هذه المادة أكثر من عشرين شرحاً ، جاء ذكر ذلك في فهرس دار الكتب المصرية وكان أشهر شرح لها شرح الزمخشري في كتابه (أعجب العجب في شرح لامية العرب) . وقد شرحها البغدادي وغيره وأوردها الأصبهاني في أغانيه والقالي في أماليه وشرحها المبرد في الكامل.

ولعل اهتمام هؤلاء الأدباء بهذه اللامية لما تحتوي عليه من كنز لغوي ثمين فيه من طرائد الألفاظ ما يجهله الكثير من أهل اللغة أنفسهم، وفيها دليل قاطع على غنى هذه اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن كل ما يختلج في صدر الإنسان كما أنها دليل على صدق

أبي عمرو بن العلاء عن فصاحة أهل السروات حين قال : أفصح الناس أهل السروات[١].

ولما فيها أيضاً من قواعد أخلاقية سامية تعلم الرجولة والخشونة ورفعة النفس وعفتها والصبر والتحمل على شظف العيش وأكدار الحياة، رغم أن الرجل لم يكن مسلماً لكنه كان عربياً أبياً.

هـذه القصيدة شهد لها خليفة المسلمين الثاني أحـد أهعم عناوين الرجولة والإباء في الإسلام عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه) والذي وجد فيها ما يرفع بالنشء المسلم ويربي فيه الأخلاق الحميدة فقد روي عنه قوله رضي اللّه عنه: (علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق).

ليست كلها مما يوافق عليه الإسلام، فقد قالها في الجاهلية وفيها من افتخار بالقتل والنهب والشدة مما ينهى عنه الدين الحنيف.

رويت بعدة روايـات اخترنا منها ما رواه أبـو علي القالي في الأمالي[٢]، قال الشنفرى:

---

١. معجم البلدان ، مادة السروات.

الأمالي ، لأبي علي القالي، ج ٣ ص ٢٠٣

أقيـمـوا بني أمــي صــدور مطيّكمُ　　فــإني إلى قــوم ســواكـم لأميل[1]

فقد حُمّت الحاجات والليل مُعْمَرٌ　　وشُـدّت لطياتي مطايا وأرحـلُ[2]

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى　　وفيـهـا لمـن خـاف القِلـى متعزّلُ

لعمرُك ما بالأرض ضيق على امرىء　　سرى راغبـاً أو راهبـاً وهـو يعقل

ولي دونكـم أهـلـون سِـيْدٌ عَمَلّسٌ　　وأرقــطُ زُهـلـولٌ وعـرْفـاء حيـألُ[3]

هم الرهط لا مستودع السر شائعٌ　　لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

وكــلٌّ أبـــيٌّ بـاســلٌ غـيـر أنـنـي　　إذا عُرضَت عليّ أولى الطرائدِ أبسَلُ[4]

وإن مدّت الأيـدي إلى الـزاد لم أكن　　بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

ومــا ذام إلا بـسـطـةٌ عـن تفضل　　عليهم وكـان الأفضـل المتفضل

وإني كفاني فقد من ليس جازياً　　بـحـسـنـى ولا في قـربـه متعلّل[5]

ثـلاثـة أصــحــابٍ فـــؤادٌ مشيّع　　وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطل[6]

هـتـوفٌ من الملس الحسان يزينُها　　رصائع قد نيطت عليها ومحْمَل[7]

إذا زلّ عنها السهم حنّت كأنها　　مُـــــرزأةٌ ثكلـى تــرنُّ وتُــعْــوِل[8]

ولـسـتُ بمهيـافٍ يُعشّـي سوامُه　　مجـدّعـةٌ سقبـانها وهــي بُـهّـل[9]

ولا جُـبّــأ أكـهـى مــربّ بعُرسه　　يطالعها في شـأنه كيف يفعل[1]

---

١. لأميل : أكثر رغبة.
٢. حُمّت الحاجات: اتضح القصد وبانت النية. وأرحل : ما يوضع على المطية.
٣. سيد : بكسر السين الذئب ، وقيل ربما سمي الأسد سيداً. عملّس : القوي السريع. الأرقط : النمر المرقط. الزهلول : الأبيض. عرفاء: اسم للضبع .حيأل : اسم للضبع أيضاً .
٤. باسل : شجاع. الطرائد: جمع طريدة وهي ما طرد من الصيد؟
٥. متعلل : متلهى.
٦. مشيع : هنا بمعنى شجاع./أبيض : السيف ./إصليت : سيف إصليت أي صقيل./الصفراء: القوس./عيطل : الطويلة القوية./هتوف : قوس هتوف أي مرنة مصوّتة.
٧. زلّ: أي خرج./رصائع: حلق تزيّن بها. /نيطت عليها: أي علقت عليها./المحمل : الذي يعلق عليه القوس.
٨. مرزّأة: من الرزء وهو المصيبة أي أنها ذات مصيبة./المهياف: الذي لا يصبر على العطش./يعشي سوامه: يعود بإبله مساء.
٩. مجدّعة: الهزيلة في الغذاء ./سقبانها: السقب ولد الناقة./بهّل: مهمّلة.

ولا خـــرقٍ هَــيِّــقٍ كــأن فــؤاده … يـظـل بـه الـمـكـاء يـعـلـو ويسفل[2]

ولا خــالــفٍ داريّـــــةٍ مـتـغـزِّلٍ … يــروح ويـغـدو واهـنـاً يتكحّل[3]

ولـســت بـعَـلٍّ شــرُّه دون خيره … ألـفُّ إذا ما رُعْتَه اهتاج أعـزلُ[4]

ولست بمحيار الـظـلام إذا نحت … هدى الهوجل العسِّيف بهْماء هوجَل[5]

إذا الأمْعزُ الصوّانُ لاقى مناسمي … تـطـايـر مـنـه قـــادحٌ ومـفـلـل[6]

أديم مـطـال الجــوع حتـى أميته … وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذْهل[7]

وأستفُّ تُرب الأرض حتى لا يرى له … علـيّ مـن الـطـول امــرؤٌ متطوّل[8]

ولـولا اجتناب الـذام لم يبق مشربٌ … يُـعــاش بــه إلا لــديّ ومــأكـل

ولـكـن نفسـاً حُــرة لا تقيـم بي … علـى الضـيـم إلا ريثما أتحـوّل

وأطوي على الخُمُصِ الحوايا كما انطوت … خُـيُـوطـة مــاريٍّ تُـغـار وتفتل[9]

وأغـدو على القوت الزهيد كما غدا … أذلُّ تـهـاداه الـنـتـائـف أطـحـل[10]

غـدا طـاويـاً يـعـارض الـريـح هافياً … يخوت بـأذناب الشِّعاب ويعسِل[11]

فلما لــواه الـقـوت مـن حيث أمَّــه … دعــا فـأجـابـتـه نـظـائـرُ نـحّـل[12]

مـهـلـهـلـةٌ شِـيـبُ الـوجـوه كأنها … قِـــداحٌ بكفّـي يـاســرٍ تتقلقل[1]

---

١. جبأ: جبان./أكهى: سيىء الخلق./مرب بعرسه: ملازم لزوجته

٢. خرق: جاهل وأحمق. /المكاء: الصوت الصغير وهو نوع من الطير.

٣. دارية: الداري الذي لا يباين داره./متغزل: الذي يغازل النساء.

٤. البعلّ: البعل له معانٍ عدة ولعله أراد القراد الضخم.

٥. الهوجل (الأولى): الناقة./بهماء: المفازة لا ماء فيها./هوجل (الثانية) : المفازة التي لا أعلام فيها.

٦. الأمعز: المعزاء هنا الحصى الصغار، والأمعز المكان ذو الحصى الصغيرة./الصوان: الأملس./مناسمي: المنسم : القدم أو الخف./قادح: الذي يتطاير منه الشرر./مفلل: مكسر.

٧. المطال: المماطلة /أذهل : أنسى.

٨. أستف: من الاستفاف وهو ابتلاع التراب./الطول: الفضل.

٩. الخمص: الخمصان: الجائع الضامر البطن./الحوايا: الأمعاء. ماري: خيّاطة.

١٠. أذلّ: يقصد به الذئب./تهاداه: تسلمه./التنائف : جمع تنوفة وهي المفازة./أطحل: أغبر.

١١. هافياً: يذهب يميناً وشمالاً من الجوع./يخوت: يسير بانكسار./يعسل : يسير بسرعة.

١٢. لواه: منعه./نظائر: أمثال./نحّل: جمع نحيل أي هزيل.

أو الخشرم المبعوث حثحث دَبْره	محابيضُ رَدّاهــن ســامٍ معسّل[٢]
مــهــرّتــة فـــوهٌ كـــأن شــدوقَـهــا	شقوق العِصيّ كـالحـاتٌ وبسّل[٣]
فـضـجّ وضـجّـت بـالـبـراحِ كأنها	وإيــاه نُــوحٌ فـوق عـلـيـاء ثـكّـل[٤]
وأغضى وأغضت وأتسى وأتست به	أرامـــلُ عـزّاهـا وعـزّتـه أرْمـــلُ[٥]
شكا وشَكَت ثم ارعوى بعدُ وارعوت	وللصبر إن لم ينفع الشَّكْوُ أجمل[٦]
وفـــاء وفـــاءت بـــادراتٍ وكـلُّـهـا	عـلـى نَـكَـظٍ ممـا يُـكـاتِم مُـجْـمِـل[٧]
وتَشربُ آساري القطا الكُدْر بعدما	سَرَت قَرَباً أحشاؤها تتصلصل[٨]
هممتُ وهـمّت وابـتـدرنـا وأسدلت	وشــمّــر مــنــي فـــارطٌ متمهّل[٩]
فـولّـيـتُ عـنـهـا وهـــي تـكـبـو لقعره	يباشره منها ذُقـونٌ وحَوْصل[١٠]
كـــأنّ وغـــاهـــا حـجـرتـاه وحـولـه	أضاميم من سُفلى القبائلِ نزّل[١١]
تـوافَـين مـن شـتّـى إلـيـه فضمها	كما ضم أذواد الأصاريم منهلُ[١٢]
فعبّت غِشـاشـاً ثـمّ مــرّت كأنها	مع الصبح رَكْبٌ من أحاظةَ مُجْفِل[١٣]
وآلـفُ وجـه الأرض عند افتراشها	بـأهـدأ تُنْبـيـه سـنـاسـنُ مُـحّـل[١٤]
وأعـــدِلُ منحوضاً كـأن فصوصه	كـعـابٌ دحـاهـا لاعـبٌ فهي مثّل[١٥]

١. الخشرم : هنا ملكة النحل./حثحث: حضّ/دبره: الدبر جماعة النحل./محابيض: أعواد وخلايا النحل./روّاهن: حركهن./سام: عال ومرتفع./معسل: الذي يخرج العسل من الخلايا.
٢. مهرّتة : واسعة ./بسّل : كريهة المنظر.
٣. ضجّ: صاح./البراح الأرض الواسعة.
٤. أتسى به: اهتدى به .
٥. ارعوى: كف الأذى.
٦. نكظ: العجلة./مجمل: متجمل.
٧. أسار: جمع سؤر وهو بقية الماء بعد القطا وهو نوع من الطير./تتصلصل: تصوّت.
٨. أسدلت:أي أرخت جناحيها إعياءً.
٩. تكبو: تتساقط./قعره: مكان الساقي./فارط: متقدم.
١٠. وغاها: الوغى الصوت./حجرتاه: طرفاه.
١١. / أضاميم: جماعات.
١٢. توافين: جئن على ميعاد./أذواد الأصاريم: الإبل.
١٣. فعبّت: العبّ شرب الماء دون انقطاع./غشاشاً: الغشاش أول الظلمة. والغِشاش : العجلة.
١٤. أهدأ : الصلب./تنبيه: تبعده./سناسن : السناسن حروف فقار الظهر.
١٥. منحوضاً: ذراعاً./الفصوص : فواصل العظام./الكعاب: جمع كعب وهي لعبة كانوا يلعبون بها.

فـإن تبتئس بالشنفرى أُمُّ قصطل   لما اغتبطت بالشنفرى قبلُ أطول[١]

طـريـد جنـايـاتٍ تيـاسـرن لحمه   عـقـيرتـه لأيِّـهـا حُـمَّ أوّل[٢]

تبيتُ إذا مـا نـام يقضي عيونها   حـثـاثـاً إلى مـكـروهـة تتغلغل[٣]

وإلــفُ هُـمـومٍ مـا تــزال تـعـودُه   عياداً كحمّى الرِّبْع أو هي أثقل[٤]

أذا وردَت أصـدرتُـهـا ثـم إنها   تَثُوب فتأتي من تُحَيْتٍ ومن علِ[٥]

فإما تريني كابنة الرّمل ضاحياً   علـى رِقـبـةٍ أحـفـى ولا أتـنـعّـل[٦]

فــإني لمـولى الـصّـبر أجـتـاب بـزّه   على مثل قلب السّمع والحزْمَ أفعلُ[٧]

وأعـــدِمُ أحـيـانـاً وأغـنــى وإنمـا   ينال الغنى ذو البعدة المُتَبَذّلُ[٨]

فــلا جـــزِعٌ لخـلــةٍ متـكشـفُ   ولا مـرِح تحـت الـغِنـى أتخيّل[٩]

ولا تزدهي الأجهال حِلمي ولا أرى   سؤولاً بأعقاب الأحاديث أُنمل[١٠]

وليلةُ نحس يصطلي القوس ربُّها   وأقـطـعـه الـلائـي بـهـا يتنبّل[١١]

دعسْت على بَغْشٍ وغطشٍ وصُحبتي   سـعـارٌ وإرزيــزٌ ووجْــرٌ وأفـكَـلُ[١٢]

فــأيّمـت نـسـوانـاً وأيـتـمـت إلــدةً   وعُدت كما أبـدأت والليل أليل[١٣]

فأصبح عني بالغميصاء حالساً   فريقـان مـسـؤولٌ وآخـر يسأل[١٤]

١. تبتئس: تحزن./أم قصطل: كناية عن الحرب.
٢. تياسرن: تقاسمن./عقيرته: نفسه./حُمّ: قُدّر.
٣. حثاثاً: سراعاً./تتغلغل: تتوغل.
٤. إلف : معاشر.
٥. تثوب: تعود./تحيت: تصغير تحت.
٦. ابنة الرمل: الحية./ضاحياً: بارزاً./الرِّقبة: مكان المراقبة المرتفع.
٧. بزّه: البز هو قماش الثوب./السّمع: ولد الذئب. الحزم: إصلاح الأمر.
٨. أعدم: أصير فقيراً./المتبذل: الذي يمارس الأمور المبتذلة.
٩. خلة: هنا الفقر.
١٠. تزدهي: تستفز./وأنمل: أنقل الحديث.
١١. وليلة : رُبّ ليلة.
١٢. دعست : دست ووطئت./الغطش: الظلام./سعار: لظى الجوع./إرزيز: برد قارس./وجر: خوف./الأفكل: الرعدة.
١٣. أيّمت نسواناً: قتلت أزوجهن./إلدة: أولاد.
١٤. الغميصاء: موضع بنجد. /حالساً: الحلس هي نجد.

فقالوا لقد هرّت بليل كلابُنا   فقلتُ أذئبٌ عسّ أم عسّ فَرْعل[١]

فلم يك إلا نبأةٌ ثم هوّمت   فقلنا: قطاةٌ ريع أم ريع أجدَل[٢]

فإن يك من جنٍّ لأبرحُ طارقاً   وإن يك إنساً ما كها الإنس يفعل

ويومٍ من الشِّعرى يذوب لوابه   أفاعيه من رَمضائه تتململ[٣]

نصَبتُ له وجهي ولا كِنَّ دونه   ولا سِتْر إلا الأتحميُّ المُرَعبَل[٤]

وضافٍ إذا هبّت له الريحُ طيّرت   لبائدَ عن أعطافه ما تُرجّل[٥]

بعيدٌ بمسِّ الدُّهنِ والفَلْي عهدُه   له عبسٌ عافٍ من الغسل مُحْوِل[٦]

وخرقٍ كظهر التُّرس قفْرٍ قطعتُه   بعاملتين ظهره ليس يعمل[٧]

فألحقت أولاه بأخراه موفياً   على قُنّةٍ أُقعي مراراً وأمثُلُ[٨]

تَرودُ الأراوي الصُّحْمُ دوني كأنها   عذاري عليهن المُلاء المذيّل[٩]

ويركدن بالآصال حوْلي كأنني   من العُصْم أدفى ينتحي الكِيحَ أعقل[١٠]

ثأره من قاتل أبيه :

روي - إن صحت الرواية - أن أبا الشنفرى كان في موضع من قومه بني سلامان، ولكنه كان في قلة مما جرّأ رجلاً يقال له : حرام

١. عسّ: من العسس وهو الدوران في الليل./فرعل: ابن الضبع.
٢. نبأة: صوت./هومت: سكنت./ريع: أُفزع.
٣. الشِّعرى: كوكب نيّر يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء وطلوعه مع شدة الحر./اللواب: العطش. /تتململ: تتقلب وتتحرك.
٤. لا كَنَّ: أي ليس دونه ستار. /الأتحمي: نوع من الثياب./المرعبل : الممزق.
٥. ضاف: طويل./ما ترجّل: لم تمشط أو تسرّح يعني شعره.
٦. بعيدٌ بمسّ الدُّهنِ والفَلْي عهدُه: أي إنه بعيد العهد من الدهن والتنظيف من القمل وغيره./العبس: الوسخ./عافٍ: متراكم.
٧. خرق: فلاة./عاملتين: يعني قدمين.
٨. قنّة: مرتفع. /أقعي: الإقعاء الجلوس على ركبتين كالكلب./أمثُل: أقف.
٩. أراويّ: جمع أروى إناث الوعل./الصُّحْم: لونها أحمر يضرب إلى السواد أو السود. /الملاء المذيل: ثياب طويلة الذيول.
١٠. يركدن: من الركود أي يثبتن./العصم: جمع أعصم وهو الوعل في ذراعيه بياض./أدفى: الطويل./ينتحي: يتجه إلى./الكيح: عرض الجبل./الأعقل: الممتنع.

بن جابر على قتله وانتظرت أم الشنفرى أن يأخذ أحدٌ بثأره فلم يفعل فخرجت بأولادها إلى بني فهم ، فلما كبر الشنفرى وترعرع في بني فهم كان حقده على بني سلامان بشكل خاص والأزد بشكل عام قد ترعرع معه ووجد من يروي هذا الحقد ويصقل فيه نوازع الثأر في بني فهم الذين كانوا يغيرون معه وعلى رأسهم تأبط شرّا. وقد قال في قتل أبيه وثأره منهم يخاطب قومه:

أضعتم أبي إذ مل شِقٌّ وِسادِه — على جنفٍ قد ضاع من لم يوسّد
فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تُفوِّقوا — منيته وغبت إذ لم أشهَّدِ
فطعنة خِلّسٍ منكم قد تركتها — تمجُّ على أقطارها سمّ أسودِ

ولما حج الشنفرى ذات مرة وقدم منى وبينما هو عند الجمار رأى حرام بن جابر فقيل له هذا قاتل أبيك. فأخذ يقترب منه حتى إذا ناله سلاحه شدّ عليه فقتله بين الحجيج ثم أطلق ساقيه للريح، تبعته الخيل لكنه أفلت منها ولم يستطع القوم أن يدركوه، وفي ذلك يقول في تائيته التي سبق ذكرها وكان مطلعها:

ألا أم عمروٍ أجمعت فاستقلّتِ — وما ودّعت جيرانها إذ تولّت

يقول :

قتلنا قتيلاً مهدياً بملبّد ... جمار منىً وسط الحجيج المصوّتِ[1]

جزينا سلامان بن مفرّج قرضَها ... بما قدّمت أيديهم وأزلّتِ

وهنّىء بي قومٌ وما إن هنأتُهم ... وأصبحتُ في قومٍ وليسوا بمنبتي[2]

شفينا بعبدالله بعض غليلنا ... وعوف لدى المعدا أوان استهلّتِ[3]

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ... ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي

ألا لا تعدني إن تشكيت خُلّتي ... شفاني بأعلى ذي البريقين عَدْوتي[4]

وإني لَحُلْوٌ إن أُريدت حلاوتي ... ومرٌّ إذا نفس العزوف استمرّت[5]

أبيٌّ لما آبي سريع مباءتي ... إلى كل نفسٍ تنتحي في مسرّتي

نهايته :

أسرف الشنفرى في قتل بني سلامان وأصبح طريد جناياته.

طريد جنايات تياسرن لحمه ... عقيرتها لأيها حُمّ أول

فكان كلما قتل واحداً زاد توحشه وخوفه ، وصار الحذر عنده في أقصى درجات يتحملها إنسان حتى أنه كان يعجز طلابه بالنوم في أماكن يصعب الوصول إليها وقد سمعناه يقول:

ومرقبة عنقاء يقصر دونها ... أخو الضروة الرَّجل الخفيُّ المخفّف

نميت إلى أعلا ذراها وقد دنا ... من الليل ملتف الحديقة أسدف

---

١. مهدياً: محرم./المصوت:الملبي.
٢. ليسوا بمنبتي: أي ليسوا بأهلي
٣. المعدى: موضع القتال./استهلّت: ارتفعت الأصوات.
٤. لا تعدني: أي لا تزرني./خلّتي: أخلائي.
٥. استمرّت: استفعلت المرارة.

فبتُّ على حدّ الذراعين أحدباً كما يتطوى الأرقم المتعطف

حتى صار من الصعب العثور عليه، تطارده المنايا فلا يأبه لها. يقيس خطاه، ويمدّ سمعه قبل بصره، لذا عجز أعداؤه فجعلوا يحيكون الخطة تلو الخطة ، لا ييأسون بعد الفشل ولو راح فيها ضحايا من سهامه التي ترى أهدافها حتى في الظلام.

كان لقتيله حرام بن جابر الذي قتله ثأراً لأبيه أخٌ يقال له: أسيد، وكان شديد الطلب للشنفرى، وكان يتتبع أخباره ، وفي أحد الأيام أقبل رجل إليه فأخبره بأنه رآه في سوق حباشة، فقال أسيد: والله إن صدقت لا نرجع حتى نأكل من جني أليف أبيدة . كناية بأننا لا نرجع حتى نقتل الشنفرى.فأخذ ابني أخيه حرام ورجلاً يدعى: خازم الفهمي، وقعدوا له في الناصف من أبيدة.

مرّ الشنفرى بعجوز في طريقه فعرفته فأطعمته أقطاً ، فسألها ماء فغيبت عنه الماء وأسقته لبناً رائباً ليزداد عطشه. فخرج من عندها ، فلما مرّ بها أسيد ومن معه أخبرتهم خبره ووصفته لهم ووصفت نبله فعرفوه وفرحوا بالخبر ، ثم رصدوا له على ماء لهم ، فلما جاء الليل وكان ليلاً بهيماً شديد الظلام. سمعوا وطأة قدمه وكان قد نزع أحد نعليه لتختلف على راصديه وطأة قدمه. فقال الغلامان: هذا ضبع. فقال عمهما: ليست الضبع وإنما هو الشنفرى

---

١. استمرّت: استفعلت المرارة.

وليضع كل منكما نعله على مقتله، فكان الشنفرى كلما رأى سواداً نكص ليرى هل يلحقه أحد.

فقال الغلامان: لقد رآنا. قال عمهما: لا.

فرمى الشنفرى نحوهم حينما رأى السواد فحسق النعل ولم يتحرك الغلام، وقيل : بل شك ذراعه.

فقال الشنفرى: إن كنت شيئاً فقد أصبتك وإن لم تك شيئاً فقد أمنتك.

وكان خازم منبطحاً بالطريق يرصده، فناداه أسيد : يا خازم أصلت سيفك. (يعني اسلله)

فقال الشنفرى: لكل أصلت (يعني حتى أنا سأسل سيفي).

فلما أقبل خازم بادره الشنفرى في الظلام فقطع أصبعيه الخنصر والبنصر فألقى عليه نفسه وأمسك به فصرعه الشنفرى بعدما تخلى عن سلاحه وما هي إلا لحظة حتى أقبل أسيد وابنا أخيه فرموا أنفسهم عليه وفيما هم يتصارعون إذ أخذ أسيد برجل ابن أخيه وقال : رجل من هذه. فقال الشنفرى: هذه رجلي، لعله يقطعها فصاح الغلام بل رجلي يا عم.

قيل بأنهم قاسوا خطو الشنفرى ليلة قبض عليه فكانت النزوة الأولى عشرين خطوة والثانية سبع عشرة خطوة.

واستطاعوا في النهاية أن يضبطوه ويقيدوه. ثم جاؤوا به وقد علت الفرحة قلوبهم بل أرجاء بني سلامان وهم يرونه مصلوباً على شجرة في حيهم .

وأقبل الصبيان والسفهاء والنساء يتفرجون عليه ويرونه عن قرب بعدما كانوا يسمعونه كأسطورة لا تصدق. قال له أحدهم : أنشد لنا . فقال : إنما النشيد عند المسرّة. فذهبت مثلاً.

وأقبلوا يتشاورون في أمره ، فمنهم من يقول: أخوكم وابنكم. ومنهم من يطالب بدمه.

فلما رأى غلام كان الشنفرى قد قتل أباه أن الناس تتحدث عن العفو خاف أن يتركوه ، فانطلق بشفرته إلى الشنفرى فضرب يده فقطعها من الكوع وكان بها شامة ، فقال الشنفرى حينما رأى يده على الأرض:

لا تبعدي فما هلكت شامه فربّ وادٍ نظرت حِمامه

ورب قرن فصلت عظامه ورب خِرق قطعت قتامه

ثم قال له سلامي وقف أمامه وفي يده قوس: أأطرفك؟ ثم رماه في عينه. فقال الشنفرى: كاك كنا نفعل بكم. (أي كذلك كنت أفعل بكم).

وحينما عزموا على قتله قالوا له : أين نقبرك ؟

فقال:

لا تقبروني إن قبري محرم	عليكم ولكن أبشري أم عامر
إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري	وغودر عند الملتقى ثم سايري
هنالك لا أرجو حياةً تسُرني	سمير الليالي مُبسلاً بالجزائر

قيل : لما مات الشنفرى لم يقبروه بناء على وصيته ، فمرّ بعظامه رجل من بني سلامان فركل جمجمته فمات على أثرها فكمل عدد المائة الذين قتلهم الشنفرى. وعجباً لجمجمة تعقر رجلاً لكنهم أرادوا إكمال المائة ، وصدق أو لا تصدق.

قال صاحبه ومعلمه تأبط شرّاً في رثائه:

على الشنفرى ساري الغمام ورائحٌ	غزير الكُلى وصيِّب الماءِ باكرُ[1]
عليك جزاءٌ مثل يومك بالجبا	وقد أُرعفت منك السيوف البواتر[2]
ويومك يوم العَيْكَتين وعطفةٍ	عطفتَ وقد مسّ القلوب الخناجر[3]

١. الكلى : جمع كلوة وهي هنا تطلق على السحاب.
٢. الجبا: موضع./أرعفت منك السيوف: قطرت دماً.
٣. العيكتين : اسم جبلين.

تجـول بِـبَـزِّ المـوت فيهم كأنهم ... بشوكتك الحُـدّى ضئينٌ نوافر[١]

فـإنـك لـو لاقيتني بعد مـا ترى ... وهـل يُلقين مـن غيبته المقابر

لألـفيتنـي في غـارة أنـتمـي بها ... إلـيـك وإمــا راجـعـاً أنــا ثائر[٢]

وإن تـك مـأسـوراً وظلت مخيماً ... وأبـليـت حتى مـا يكيدك واتر[٣]

وحتى رمـاك الشيب في الرأس ... وخيرك مبسوطٌ وزادك حاضر[٤]

وأجـمـلُ مـوتِ المـرء إذ كـان ميتاً ... ولا بـد يـومـاً مـوتـه وهـو صابر

فلا يبعدنّ الشنفرى وسلاحُه الـ ... حـديـد وشـدُّ خـطـوه متواتر[٥]

إذا راع روع المـوت راع وإن حمى ... حمى معه حرٌّ كـريمٌ مصابر



١. بزّ الموت: يقصد السلاح./الحدّى: المرهفة الحادة./ضئين: جمع ضأن يقول: ينفرون منك كأنهم الضأن من الغنم.
٢. أنتمي بها : أنتسب إليها./ثائر: آخذ بالثأر.
٣. مأسوراً: أسيراً في قبرك.
٤. عانساً: العانس الذي لم يتزوج ويطلق على الرجل والمرأة، ويعني أيضاً الجمل السمين.
٥. متواتر: يتلو بعضه بعضاً.

حاجز بن عبدالله الأزدي

الحصان النفاث

وكأنما تبع الفوارس أرنبا أو ظبي رابية خفافاً أشعبا
وكأنما طردوا بذي غرّاته صَدّغاً من الأروى أحن مكلّبا

حاجز بن عبدالله الأزدي

كثيراً ما نسمع بطائرة أسرع من الصوت، وربما تقاس سرعة الحيوانات والمراكب الأرضية بسرعة الحصان، أما شاعرنا هذا فأستطيع أن أقول بأنه أسرع من الحصان .

لا تستعجل في تكذيب الخبر ، فالرجل اشتهر بهذا، وسوف تجد في أخباره ما يدلنا على سرعته المذهلة.

كان حاجز يغزو على قدميه فهو يرى أنها أنجى له من صهوة الخيل.

أما نسبه فهو : حاجز بن عبدالله بن الحارث الأزدي ، ينتهي نسبه إلى سلامان بن مفرج بن زهران[١] .

سأله أبوه عن أشد عدوه فقال : أفزعتني خثعم (أي طردتني) فنزوت نزوات ثم استفزتني الخيل واصطف لي ظبيان فجعلت أنهنهما عن الطريق ، ومنعاني أن أتجاوز في العدو لضيق الطريق حتى اتسع واتسعت بنا فسبقتهما.

فقال أبوه : فهل جاراك أحدٌ في العدو ؟

قال : ما رأيت أحداً جاراني إلا أطيلس أغيبر من البقوم فإنا عدونا فلم أقدر على سبقه[٢] .

---

١. انظر : الأغاني ، مرجع سابق ، ج ١٣ ص ٢٠٩
٢. انظر : المرجع السابق ، ج ٢١ ص ١٥٣

فهل تستطيع أن تقيس سرعة هذين الرجلين؟ . لله في خلقه شؤون.

يقول حاجز في قدميه :

فدى لكما رجليّ أمي وخالتــي   بسعيكما بين الصفا والأثائب

وهو من الشعراء المقلين ، ولم يصل إلينا من شعره إلا القليل، لكن شعره يهدي لنا بعض ما نأنس به من مفردات يظنها البعض في - وقتنا الحاضر - عامية. كما تنقل لنا مغامراته ومغامرات نفر من الصعاليك الذين كانوا معه.

وردنا القليل من شعره منه افتخاره بقومه بني سلامان حيث قال:

قومي سلامان إذا ما كنتِ سائلة   وفي قريش كريم الحلف والحسبِ

إني متى أدع مخزوماً تري عُنقاً   لا يرعشون لضرب القوم من كثب

ندعو المغيرة في أولى عديدهمُ   أولاد مرّاسة ليسوا من الذنب

ويروي لنا ميمون قصيدة لحاجز يفخر بقومه فيها يقول فيها:

لمــن طـلـل بـعـثّـمـة أو حـفـارِ   عفته الـريـحُ بعدك والسواري[1]

عفـتـه الـريـح واعـتـلـجـت عليه   بـأكـدر مـن تـراب الـقـاع جـار[2]

١. عثمة وحفار : موضعان.
٢. اعتلجت عليه : تراكمت عليه.

فــلأيــاً مــا يـبـين رثـيـد نــؤيٍ ... ومرسى السفليين من الشجار[1]

ومــبرك هـجـمة ومـصـام خيل ... صـوافـن في الأعـنـة والأواري[2]

ألا هـل جـاءك الأنـبـاء تنمي ... طــوالــع بـين مـبـتكر وسـارِ

بمحبسنا الكتائب إن قومي ... لـهـم زنـد غـداة الـنـاس واري

إذا ذادوا عــواد تـعـود منا ... عـبـاهـلـة سـيـوفـهـم عــوار[3]

فـأبـلـغ قـسـعـة الجـشـمـي عني ... كـفـيـل الحــي أيـــام الـنـفـار

بــآيــة مــا أجــزتــهــمُ ثـلاثـاً ... بـقـين وأربــعـــاً بـعـد الـســرار[4]

فــجــاءت خـثـعـم وبـنــو زبـيـد ... ومـذحـج كلها وابـنـا صحار[5]

وجـمـع مـن صــداء قـد أتـانـا ... ودعــمـــيٌّ وجـمـع بـنـي شعار[6]

فـلـم نـشـعـر بـهـم حـتـى أتـونـا ... كـحِـمـيَر إذ أنـاخـت بالجمار

فــقــام مــــؤذن مـنــا ومـنـهـم ... لــدى أبـيـاتـنـا سـوري سـوار

كــأنــا بـالمـضـيـق وقـــد ثـرونـا ... لدى طرف الأصيحر ضوء نار[7]

فـقـالـوا يـا لـعـبـس نـازعـوهـم ... سجال المـوت بـالأسّل الحـرار[8]

فقلنا بـالمـراي ماصعوهم ... فــرار الـيـوم فاضـحـة الـذمـار[9]

فـإمـا تـعـقـروا فـرسـي فـإني ... أقـدّمـهـا إذا كـثـر الـتـفـاري

---

١. لأياً: المهد . رثيد : رثد : وضع بعضه فوق بعض. نؤي : حفرة تحفر حول الخباء. الشجار : عيدان الهودج.

٢. هجمة : الهجمة من الإبل أولها أربعون فأكثر. مصام الخيل : موقفها. صوافن : الصافن القائم على ثلاث قوائم والرابعة على طرف الحافر. الأواري : جمع آري وهو محبس الدابة.

٣. العباهلة: الملوك الذين أقروا على ملكهم ، وكذلك كل شيء لا يمنع مما يريد ولا يضرب على يديه.

٤. السرار : آخر ليلة من الشهر.

٥. خثعم قبيلة سبق التعريف بها، وزبيد : هم زبيد بن منبه من بطون مذحج.

٦. صداء بطن ضخم من جنب وهو ولد يزيد بن حرب . وجنب حلف وهم : منبه والحارث والغلى وسنحان وهفان وشمران. ودعمي وشعار : بطنان.

٧. ثرونا : كثرنا . الأصيحر : موضع.

٨. الأسل : الرماح والنبل والأسلة هي شوكة النخل.

٩. ماصعوهم: جالدوهم.

وأحملها على الأبطال إني — على يوم الكريهة ذو اصطبار

صليت بغمرة فخرجت منها — كنصل السيف مختضب الغرار[1]

كأن الخيل إذ عرفت مقامي — تفادي عن شتيم الوجه صار[2]

أكفئهم وأضربهم ومني — مشلشلة كحاشية الإزار[3]

وأعرض جاملٌ عكر وسبي — كغزلان الصرايم من بحار[4]

فلم أبخل غداتئذ بنفسي — ولا فرسي على طرف العيار

نضارب بالصفائح من أتانا — وأخراهم تمالأ بالفرار

ألا أبلغ غزيّل حيث أضحى — أحقّاً ما أنبّأ بالفخار

فإنك والفخار بآل كعب — كمن باهى بثوب مستعار

وذات الحجل تبهج إن تراه — وتمشي والمسير على الحمار

أرينا يوم ذلك من أتانا — بذي الظبة الكواكب بالنهار

فلو كنا المغيرة قد أفأنا — المؤبّل والعقائل كالعرار[5]

أبا ثور سجاح فإن دعوى — تخالف ما أبيت عصيم عار[6]

فلولا أن تدارك جري صهوي — كلومٌ مثل غائلة النفار[7]

لردّ إليك شاكلة بتبرا — حسام غير مستلم قطار[8]

---

١. الغرار : حد السيف.

٢. صار : قاطع.

٣. مشلشلة: الدرع.

٤. جامل: الجامل قطيع الإبل مع رعاته وأربابه. العكر : جمع عكرة وهو القطيع الضخم من الإبل. الصرايم : الرمال وهو ما انصرم من معظم الرمل. بحار: موضع.

٥. أفأنا : أرجعنا ورددنا. المؤبل : الإبل المتخذة للقنية. العقائل: جمع عقيلة والعقيلة كريمة الحي.

٦. أبو ثور : هو عمرو بن معديكرب الزبيدي. سجاح: هنا بمعنى العفو. عصيم عار: أثر العار وبقيته.

٧. الغائلة : الشر والأذى. النفار : ورم الجرح.

٨. الشاكلة : الخاصرة. قطار: قاطع.

وقد كان الحرث بن عبدالله من زهران يأخذ من جميع الأزد الربع إذا غنموا لأن الرئاسة في الأزد لقومه، وقد غزتهم بنو فقيم بن عدي فاستفزعوا بسلامان فأغاثوهم ولما هزموا بني فقيم طلب الحرث الربع من سلامان كعادته، فمنعه مالك بن ذهل وهو ابن عم حاجز وقال : هيهات ترك الربع غدوة. فصارت مثلاً. فقال أعطني ولو جعباً (والجعب البعر) لئلا تسمع العرب أنك منعتني. فقال مالك : فمن سماعها أفر.

فقال حاجز في ذلك :

ألا زعمت أبنـــاء يشكـر أننـا	بربعهم باؤوا هنـــالك ناضـل
ستمنعنا منكم ومن سوء صنعكم	صفائح بيضٌ أخلصتها الصياقل
وأسمر خطي إذا هــز عاسـل	بأيدي كمـاة جربتهـا القبائـل

يدل القوم على أعدائه :

بحكم قرب الديار واتساع ديار خثعم القبيلة المعروفة والتي كانت شهران أكبر قبائلها، ولسهولة أرضهم أيضاً فقد كانت أكثر غزوات حاجز عليهم حتى عرف مسالكها ومجاهلها، فأصبح دليلاً وعميلاً (استخباراتيّاً) يبيع معلوماته على الصعاليك الذين يرغبون في الهجوم عليهم، وكان من ذلك أنه دل جمعاً من فهم وعدوان في

غزوة على خثعم فأصابوا منهم غرة وغنموا ما شاؤوا ، فبلغ حاجزاً أن خثعم يتوعدونه ويرصدون له ، فقال في ذلك :

وإني مـن أرعــادكــم وبـروقـكـم وإيعـادكم بالقتل صمٌّ مسامعي
وإني دلـيـل غـير مخـفٍ دلالـتـي على ألـف بيت جدهم غير خاشع
ترى البيض يركضن المجاسد بالضحى كـذا كل مشبوح الـذراعـين نـازع
عـلـى أي شــيء لا أبــا لأبيكم تشيرون نحوي نحوكم بالأصابع

من غزواته على خثعم :

غزا مرة خثعم ومعه ابن أخ له يدعى بشيراً، وبينما هما في طريقهما يترقبان القوم، ويخططان للانقضاض على غنيمة من إبل يجدانها في طريقهما أو ما يمكنهما أن يهربا به إذ أقبلت عليهما قوم من خثعم في قافلة لا يعلمان كيف ينجوان منها فرأى أن يسيرا معهم وكأنهما منهم لكي لا يثيرا شبهة أحدا من القوم ، سارا مع الناس وتظاهرا بأنهما منها من خثعم ونجحا في تضليل من رآهما لولا أن عجوزاً من القوم لاحظت شامة في ساق حاجز يعرف بها فصاحت بالقوم:

- هذا حاجز فأدركوه.

فانطلق حاجز كالسهم يلحق ابن أخيه . وتبعتهما الخيل فقالت عجوز ساحرة:

- أأكفيكم عدوه أم سلاحه ؟.

فقالوا:

- بل اكفينا سلاحه أما عدوه فعندنا عوف بن الغر يعدو عدوه.

وانطلق عوف خلفه فلما قرب منه قالوا :

- يا عوف ارمه .

فجبن عوف ولم يستطع أن يرميه. فغضب القوم وقالوا :

- يا حاجز لك الذمام فاقتل عوفاً فإنه قد فضحنا.

فنزع قوسه ليرميه فانقطع وتره فأخذ قوس بشير فانكسر، قالوا: لأن الساحرة قد سحرت سلاحهما.

فانطلقا هاربين من القوم.

وفي هذا يقول حاجز:

فـدى لكما رجلـيّ أمــي وخالتي ... بسعيكما بين الصفا والأثائب.

أوان سمعت القوم خلفي كأنهم ... حريق أباشت في الرياح اللواقح

سيوفهم تغشى الجبـان ونبلهم ... يضيء لدى القوام نار الحباحب

فغير قتالي في المضيق أغاثني ... ولكن صريح العدو غير الأكاذب

نجــوت نجــاء لا أبــيــك تبثه ... وينجو بشير نحو أزعـر خاضب

وجــدت بـعـيراً هــامـلاً فركبته ... فـكـادت تـكـون شـر ركـبـة راكـب

وفي أحد الأيام غزت خثعم على بني سلامان ومعهم الفارس الصنديد المعروف عمرو بن معديكرب الذي استنجدت به في هذه الحرب ، ولما التقى القوم في القرى طعن عمرو حاجزاً في فخذه فصاح حاجز بأعلى صوته :

- يا آل الأزد .

فندم عمرو وقال :

- خرجت غازياً وفجعت أهلي.

ولما عادت خثعم قال عزيل الخثعمي يذكر طعنة حازم :

أعجـــز حاجـزاً منّـا وفيـه ... مشلـشلـة كحـاشـيـة الإزار

فعز علـي مـا أعجـزت منــي ... وقد أقسمت لا يضرّيك ضــار

فأجابه حاجز يعتذر عن ما أصابهم يوم القرى وذكره بأنهم قد تقابلوا أياماً عديدة كانوا قد انتصروا فيها عليهم :

لئن تذكروا يوم القراء فإنه ... بواء بأيام كثير عديدها

فنحن أبحنا بالشخيصة واهناً ... جهاراً فجئنا بالنساء نقودها

ويوم كراء قد تدارك ركضنا ... بني مالك والخيل صعر خدودها

ويوم الأراكات اللواتي تأخرت ... سراة بني لهبان يدعو شريدها

ونحن صبحنا الحي يوم تنومة ... بملمومة يهوى الشجاع وبيدها[1]

ويوم شروم قد تركنا عصابة ... لدى جانب الطرفاء حمراً جلودها

فما زعمت حلفاً لأمر يصيبها ... من الذل إلا نحن رغماً نزيدها

وفي إحدى غزواته على خثعم قصد أكلب، فتنبه له القوم، فتبعه المرقع الخثعمي لكنه فاته ولم يدركه ، فقال حاجز في ذلك :

وكأنما تبع الفوارس أرنبا ... أو ظبي رابية خفافاً أشعبا

وكأنما طردوا بذي غرّاته ... صَدَّغاً من الأروى أحن مكلّبا

أعجزت منهم والأكف تنالني ... ومضت حياضهمُ وآبوا خُيّبا

ادعو شنوءة غثها وسمينها ... ودعا المرقع يوم ذلك أكلبا

١. تنومة : مدينة في بلاد بني شهر تقع جنوب النماص شمال مدينة أبها جنوب المملكة العربية السعودية. ولا زالت تحتفظ باسمها.

هو وبنو هلال:

لم تسلم بنو هلال من شر حاجز فقد كان يغزوها هو وأبوه ولهما معهم سجالٌ، وقد غزا أبوه ببني سلامان ديار بني هلال وكان حاجز معهم فأصابوا منهم وغنموا غنائم كثيرة وفي هذه الغزوة يقول حاجز:

صباحك واسلمى عنا إماما ... تحية وامق وعمي ظلاما

برهرهة يحار الطرف فيها ... كحقة تاجر شدّت ختاما

فإن تمسي ابنة السهمي منا ... بعيداً لا تكلمنا كلاما

فإنك لا محالة إن تريني ... ولو أمست حبالكم رُماما

بناحية القوائم عيسجور ... تداركتها عاما فعاما

سلي عني إذا اغبرّت جمادى ... وكان طعام ضيفهم الثمام

ألسنا عصمة الأضياف حتى ... ليضحي مالهم نفلاً تواما

أبي عبر الفوارس يوم داجٍ ... وعمّي مالك وضع السهاما

فلو صاحبتِنا لرضيت منا ... إذا لم تفق المائة الغلاما

وقام ضمرة بن ماعز الأزدي في بعض بني هلال بن عامر بقتل حجاج من الأزد، فبلغ ذلك حاجزاً فغضب وجمع من قومه جمعاً ثم غزا بني هلال في ديارهم فقتل فيهم وسبى . ولما عاد قال هذه

القصيدة يخاطب ضمراً يذكره بما نال من قومه ويعلنها حرباً ضروساً بينهم:

يا ضمر هل نلناكمُ بدمائنا ... أم هل حذونا نفلكم بمثال

تبكي لقتلى من فقيم قُتّلوا ... فاليوم تبكي صادقاً لهلال

ولقد شفاني أن رأيت نساءكم ... يبكين مردفةً على الأكفال

يا ضمر إن الحرب أضحت بيننا ... لقحت على الدكاء بعد حيال

وقد غزا حاجز قبيلة عامر فانتبهوا له فهرب منهم ولم يستطيعوا اللحاق به فقال في ذلك:

ألا هل أتى ذات القلائد فرّتي ... عشية بين الجرف والبحر من بعرِ

عشية كادت عامرٌ يقتلونني ... لدى طرف السلماء راغبة البكر

فما الظبي أخطت خلفه الصقر رجله ... وقد كاد يلقى الموت في حلقة الصقر

حاجز وتأبط شرًا:

غزا تأبط شرّاً الصعلوك المعروف قوم حاجز، فتناذروه وعلموا به وأرادوا أن يظفروا به، فتركوا له إبلاً وجعلوا له كميناً يتألف من ثلاثة من شجعانهم وهم حاجز بن عوف وسواد بن عمرو وعوف بن عبدالله ، فبصر تأبط شرًا بالإبل فطردها بعض يومه ثم تركها ونهض في شعب لينظر هل يطلبه أحد، فكمن القوم حين رأوه ولم

١. الأكفال : جمع كفل ، وهو هنا شيء مستدير يوضع على سنام البعير وحوله ويركب عليه.

يرهم فلما لم ير أحداً في أثره اطمأن ، وعاد إلى الإبل فطردها يومه وليلته حتى أمسى فعقلها وصنع طعاماً فأكله، والقوم ينظرون إليه في ظله ثم هيأ مضجعاً على النار ثم أخمدها، وهو كعادته شديد الحذر لا يأمن حتى ظله، فزحف على بطنه ومعه قوسه حتى دخل بين الإبل خشية أن يكون أحد يتبعه، ثم وضع على كبد قوسه سهماً.

ظن الثلاثة أن تأبط شرّاً قد نام فأقبلوا على مضجعه يريدون أن يقبضوا عليه ويكتفوه فرمى أحدهم فقتله ثم رمى الآخر فقتله إلا حاجزاً هرب ونجا بنفسه فأخذ سلب الرجلين والإبل وذهب إلى قومه غانماً وهو يقول قصيدة مطلعها:

ترجى نساء الأزد طلعة ثابت ... أسيراً ولم يدرين كيف حويلي

فإن الآل أوصيتم بين هارب ... طريد ومسفوح الدماء قتيل

فرد عليه حاجز:

سألت فلم تكلمني الرسوم ... فظلت كأنني فيها سقيم

بقارعة الغريف فذات مشي ... إلى العضداء ليس بها مقيم[1]

منازل عذبةِ الأنياب خَوّدٍ ... فما إن مثلها في الناس نيم[2]

---

١. قارعة الغريف وذات مشي والعضداء أسماء مواقع.
٢. خود: الجارية الناعمة.

فأما إن صرمت فغير بغض ... ولكن قد تُعدّيني الهموم

عداني أن أزورك حرب قوم ... كحرِّ النار ثاقبةٌ عذوم[1]

عذوم ينكل الأعداء عنها ... كأن صُلاتها الأبطال هِيم

فلست بآمر فيها بسلم ... ولكني على نفسي زعيم

قتلنا ناجياً بقتيل فهم ... وخير الطالب الترة الغشوم[2]

بغزوٍ مثل ثلغ الذئب حتى ... ينوء لصاحبي ثأرٌ مُنيم[3]

ينوء بصاحبي أو يقتلوني ... قتيل ماجد سمح كريم

ولما أن بدت أعلام ترج ... وقال الرابئان بدت رنوم[4]

وأعرضت الجبال السود خلفي ... وخينف عن شمالي والبهيم[5]

أمَمتُ بها الطريق فُويق نَعْلٍ ... ولم أقسِم فتَرْبثني القُسُومُ[6]

ومَرْقبةٍ نميتُ إلى ذراها ... يقصر دونها السَّبط الوسيم[7]

علوتُ قذالها وهبطت منها ... إلى أخرى لقلّتها طميم[8]

فلم يقصر بها باعي ولكن ... كما تنقضُّ ضاريةٌ لحوم

من النر الظهور كأن فاها ... على شيء قدوم

وليلة قرة أولجت فيها ... يحرّق جلد ساقيّ الهشيم

---

١. عذوم : أصل العذم العض ويقصد بها هنا الحرب الشديدة.
٢. الترة : الثأر. الغشوم: الظالم.
٣. كنى بولوغ الذئب يعني تواصل الحرب. منيم : فيه وفاء طلبته.
٤. ترج : واد يصب في بيشة ، الرابئان : جبلان. ورنوم: جبل أو واد.
٥. خينف :جبل أو واد . البهيم : واد.
٦. لم أقسم : لم أستقسم . تربثني : تحبسني.
٧. السبط الوسيم : أي الشاب الخفيف الجسم.
٨. قذالها : قمتها . القلّة : أعلى الجبل. طميم : لعله أراد الصوت والهدير الصادر من الريح.

فأصبحتِ الأناملُ قد أُبينت كأن بنانها أنفٌ رثيمُ [١]

تراها من وثام الأرض سوداً كأن أصابع القدمين شيم [٢]

ورَجْل قد لففْتُهُمُ برَجْلٍ عليهم مثل ما نُثِر الجريمُ [٣]

يصيب مقاتل الأبطال منهم قحيط الطعن والضرب الخذيم [٤]

كمعمعة الحريقةِ في أباء تشبُّ ضرامها ريح سموم [٥]

وردّت الموت بالأبطال فيهم إذا خام الجبان فلا أخيم

ومُعترك كأن القوم فيهم تبل جلود أوجههم جحيم

صليت بحرّه وتجنّبته رجال لا يناط بها التميم

إذا أنسى الحياء الرّوع نادوا ألا يا حبذا الأنس المقيم

فرد عليه تأبط شراً :

لقد قال الخلي وقال خلساً بظهر الليل شرّبه العكوم

لطَيفٍ من سعاد عناك منها مراعاة النجوم ومن يهيم

ومرّت الأيام وغزا تأبط شرّاً الأزد مرة أخرى فترصدوا له عند مضيق في طريق عودته فلما شعر بهم رجع، فانقضوا خلفه لكنه أطلق قدميه للريح فأرسلوا خلفه حاجزا لكنه لم يلحق به . فقال تأبط شراً في ذلك :

١. الأنف الرثيم : المكسور.
٢. من وثام الأرض : من وطء الأرض
٣. الرجل : الراجل خلاف الراكب . الجريم : التمر المجني.
٤. قحيط : شديد. الخذيم: القاطع.
٥. أباء : الأباء القصب.

قعقعت حضني حاجز وصحابه ... وقد نبذوا خلقانهم وتشنعوا[1]

أظن وإن صادفتُ وعثوان أو جرى ... بي السهل أو متن من الأرض مهيع[2]

أجاري ظلال الطير لو فات واحد ... ولو صدقوا قالوا له هو أسرع

فلو كان من فتيان قيس وخِندف ... أطاف به القنّاص من حيث أفزعوا

وجاء بلاداً نصيف يوم وليلة ... لآب إليهم وهو أشوس أروع[3]

فلو كان منكم واحداً لكفيته ... وما ارتجعوا لو كان في القوم مطمع

فأجابه حاجز:

فإن تك جاريت الظلام فربما ... سبقت ويوم القَرْن عريان أسنع[4]

وخليت إخوان الصفاء كأنهم ... ذبائح عتر أو نخيل مصرّع[5]

تبكيهمُ شجو الحمامة بعدما ... أرحتَ ولم ترفع لهم منك أصبع

فهذي ثلاث قد حويت نجاتها ... وإن تنج أخرى فهي عندك أربعُ

وفاته :

الغريب أنه روي أن وفاته كانت غير واضحة فقد قيل بأنه مات عطشاً أو ضل . وسواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح إلا أن أعداءه استراحوا منه وتوقف رجل كالنفاث يخترق الأودية والفيافي القفار كالسهم لم يغلبه فيها إلا تأبط شرّاً كما نقل.

---

١. تشنعوا : شنع الرجل شمّر وأسرع .
٢. مهيع : يقال طريق مهيع أي واسع وواضح.
٣. الأشوس : الشديد الجريء على القتال.
٤. أسنع: طويل.
٥. عتر : العتر والعتيرة: شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم فشبههم بتلك الذبائح.

قالت أخته ترثيه في قصيدة وصلنا منها:

أحـــيٌّ حـاجـز أم لـيـس حيّا فيسلك بـين خـنـدف والبهيم

ويـشـرب شـربـة مـن مــاء ترج فيصدر مشية السبع الكليم

* * *

معقّر بن حمار البارقي

كـــأنّ نـعـام الـــدّوّ بـاض عليهم   وأعـيـنـهـم تحـت الحـبـيـك جواحر

ضربنا حبيك البيض في غمـر لجة   فلم ينـج في الناجين منهم مفاخر

معقِّر بن حمار البارقي

شاعر جاهلي من قبيلة بارق المعروفة التي تسكن في تهامة شرق بلاد بني شهر ،شمال مدينة محائل العسيرية نحو مكة ولهم وادٍ كبير يسمى باسمهم حتى الآن ينحدر من جبلي أثرب وريدان نحو الغرب حتى يصب في وادي حلي ، ويقع بين واديي نعص من الجنوب وخاط من الشمال.

وبارق هو سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حرثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد.

قيل بأن بارقاً جدهم سمي بجبل نزلوه بالسراة وقيل بل باسم ماء نزلوه حينما جاؤوا من سبأ وقيل بل لأنهم تتبعوا البرق [1].

اختلف في اسم شاعرنا، فقيل اسمه: معقر بن الحارث بن أوس بن حمار[2].

وقيل بل اسمه: عمرو بن سفيان بن حمار بن الحارث بن أوس[3].

وقيل بل : معقِّر بن أوس بن حمار بن شجنة[4]. وقيل غير ذلك.

سمي معقِّراً لقوله:

١. أبو عبدالله محمد بن عمران المرزباني، معجم الشعراء، مكتبة القدس ودار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ص ٩٢.
٢. المرجع السابق نفس الصفحة..
٣. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، تصحيح وتعليق الأستاذ د. ف كرنكو، مكتبة القدس ودار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ص ٢٠٤.
٤. أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي، نسب معد واليمن الكبير ، ص ٤٦٤.

لها ناهض في الوكر قد مهّدت له   كما مهّدت للبعل حسنـاء عاقـر

ومعقِّر شاعر وصف بأنه محسن ومتمكن ، إلا أنه لم يصل إلينا من شعره إلا القليل . أما سيرته فقد بخلت بها الكتب ، فلم يصلنا من أخباره شيء إلا ما ذكر هنا غالباً ، وللأسف لم نقرأ من شعره بصيراً، فقد أبدع وصفاً وهو أعمى فكيف بشعره وعيناه تجولان ببصرهما في محجريهما.

يوم شعب جبلة :

كان ليوم شعب جبلة فضل كبير في إيصال شعره إلينا. ويعتبر هذا اليوم من أعظم أيام العرب في الجاهلية، قيل بأن عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة ، ويوم ذي قار.

وقع يوم جبلة قبيل الإسلام بين نمير بن عامر بن صعصعة[1] ومعهم حلفاؤهم بارق، وبين بني ذبيان[2]. وقد حضر معقِّر هذه الموقعة شيخاً كبيراً وقد كف بصره.

لم يكن الشاعر ليقف في منأى عن الحرب وهو الذي كان الشاعر الشجاع المعتز بنفسه قبل العمى.

١. هو نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، ولد نمير كعباً وعارماً والحارث وعمراً وضنة.
٢. ذبيان بن الحارث بن سعد هُذيم.

كان في هذه المعركة فوق بعيره يصيخ سمعه لعله يعوض ما فقده ببصره . وكانت ابنته سليمى تقود به الجمل، وتصف له ما يدور في ساحة القتال، أرى فارساً يفر من هناك وأرى فارساً يهوي بسيفه على فلان، وأرى فلاناً يشق الصفوف. وكان لا يدعها تمر بحدث إلا استوفته وصفاً دقيقاً على سمعه، وهو بدوره يكوّن لتلك الأحداث في عقله صوراً تلو صور، وأصواتاً تلو أصوات وأحاسيس فوق أحاسيس، حتى أتى شِعباً ليس ببعيد عن المعركة لكنه أكثر أماناً ،قال لها :

– اهبطي فلا يزال هذا الشعب آمناً سائر اليوم.

فلما انتهت المعركة ونجا هو وابنته من مصائبها قال قصيدته الرائعة التالية:

أمـن آل شعثاء الحمولُ البواكرُ ... مع الصُّبح قد زالت بهنّ الأباعر [1]

وحلّت سليمى في هضابٍ وأيكةٍ ... فليس عليها يـوم ذلـك قـادر

تُهيّبُك الأسفار من خشية الردى ... وكم قد رأينا من رَدٍ لا يسافر [2]

وألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قـرَ عينا بـالإيـاب المسافر

فصبّحها أفلاكها بكتيبة ... عليها إذا أمست من الله ناظر [3]

مُعاوية بن الجُون ذبيان حوله ... وحسّان في جمع الرِّباب مكاثر [4]

---

١. شعثاء : الشعث تلبد الشعر وغبرته،/والحمول الإبل ./الأباعر : الإبل

٢. رد : هالك. يقول تخاف من الأسفار خوفاً من الهلاك، وكم من إنسان هلك وهو لا يسافر.

٣. أفَلاكها : جمع فلك ، والفلك هنا قطعة الأرض المستديرة .

٤. الرباب : يقصد بها الأحياء التي سمى ، سموا بذلك لتفرقهم .

وقـد جمعا جـمـعـاً كـأن زُهــاءه ... جـرادٌ سفى ﭬ هـبـوةٍ متظاهر[١]

ومـرُّوا بـأطـراف البيوت فردّهم ... رجال بأطراف الرماح مساعرُ[٢]

يـفـرِّج عـنـا كـل ثـغـر مخـافـةً ... جـوادٌ كسرحان الأبـاءة ضامر[٣]

وكـلُّ طـمـوح ﭬ الجِـراء كأنها ... إذا اعتسمت ﭬ الماء فتخاء كاسر[٤]

لها ناهض ﭬ الوكر قد مهّدت له ... كما مهّدت للبعل حسناء عاقر[٥]

هوى زهـدَمٌ تحت الغبار لحاجبٍ ... كما انقضّ أقنى ذو جناحين فاتر[٦]

هـمـا بـطـلان يـعـثران كلاهما ... يريد رياس السيف والسيف نادر

فلا فضْل إلا أن يكون جراءةٌ ذَوَي ... ذَوَي بدنين والـرؤوس حواسر

يـنـوءُ وكـفّـا زهــدمٍ مـن ورائـه ... وقـد عُـلّقت ما بينهن الأظافر

وبـاتـوا لنا ضيفاً وبتنا بنعمةٍ ... لنا مُسمعاتٌ بالدُفوف وسامر

فلم نُقْرِهم شيئاً ولكن قَصْرهم ... صبُوح لدينا مطلع الشمس جازر[٧]

فباكرهم قبل الـشـروق كتائبٌ ... كـأركـان سلمى سَيْرها متواتر[٨]

من الضاربين الكبش يبرق بيضه ... إذا غصّ بالريق القليل الحناجر[٩]

وظّـن سراة الحـي أن لن يُقتّلوا ... إذا دعيت بالسفح عبس وعامر[١٠]

---

١. زهاءه : هنا زهاء الشيء قدره، يقال زهاء مائة أي قدر مائة. سفى ﭬ هبوة : أسرع ﭬ غبرة . متظاهر : بعضه فوق ظهر بعض.

٢. مساعر: جمع مسعر، يقال: فلان مسعر الحرب إذا كان يوقدها وبه تحمى الحرب.

٣. سرحان : هو الذئب . الأباءة : القصب.

٤. الجراء : جمع جرو وهو ولد الصغير من الكلب أو السباع. اعتسمت : اكتسبت فتخاء كاسر: العقاب.

٥. ناهض: الناهض العضلة التي تلي عضد الفرس من أعلاها. الوكر: عش الطائر. مهدت له : هيأت له عاقر : لم تلد.

٦. زهدم : الزهدم الصقر ويقال فرخ البازي. وبه يسمى الرجل. أقنى : صفة ﭬ البازي وهي اعوجاج ﭬ منقاره وهي صفة ذم ﭬ الفرس مدح ﭬ البازي.

٧. يعني :بأننا لم نقدم لهم الضيافة ليلاً لكنا قدمنا لهم الصبوح طلوع الشمس بجزرهم.

٨. سلمى : لعله يقصد جبل سلمى .

٩. الكبش: الشجاع.

١٠. عبس وعامر : القبيلتان المعروفتان.

كـــأنّ نـعـام الـــدّوِّ بـاض عليهم ... وأعينهم تحت الحبيك جواحر[1]

ضربنا حبيك البيض في غمر لجة ... فلم ينج في الناجين منهم مفاخر

ولم ينـج إلا أن يكـون طَـمَـرّهٌ ... نــوائـلُ أو نــهـدٌ مـلـحٌّ مثابر[2]

وقد حضر معركة أخرى فلما انتهت راح يشنف آذان قومه برائعة من روائع الوصف الحربي الدقيق الذي لم يغفل تفاصيل مذهلة تغيب على شعراء آخرين اشتهروا بالوصف في زمانه ، قال فيها :

أجــدَّ الـركـب بعد غـدٍ خفوفُ ... وأضـحـت لا تواصلك الألـوفُ[3]

وكــان القـلـب جُــنّ بـهـا جنوناً ... ولم أر مثلها فيمن يطوف

تـــراءت يــوم نـخـلَ بمُـسْـبَـكَـرٍّ ... تـربيـه الـذريـرة والـنّـصـيـفُ[4]

ومـشـمـولٍ عـلـيـه الـظَّـلـمُ غَـرٍّ ... عِـــذابٌ لا أكــسٌّ ولا خـلـوفُ

كــأن فـضـيـض رُمّــــانٍ جنيٍّ ... وأتـــــــرُجٍّ لأيـكـتـه حـفـيـفُ

عـلـى فـيـهـا إذا دنــت الـثريـا ... دنــوّ الـدلـو أسـلـمـه الضعيفُ

أجـــادت أمّ عَـبْـدة يـوم لاقـوا ... وثـــار الـنـقـع واخـتـلـف الألـــوف

يـقـدِّم حـبـتراً بــأفـلّ عضبٍ ... لــه طـبـةٌ لمـا نـالـت قـطـوفُ[5]

---

١. الدّو: الفلاة. أي: كأن النعام باض على رؤوسهم مما عليها من الخوذ./الحبيك: البيض التي على رؤوسهم تقيهم من السلاح.

٢. طمرّه: الفرس الجواد./نهد: فرس ضخم قوي.

٣. خفوف : الخفوف سرعة السير.

٤. المسبكر: المسترسل المعتدل./الذريرة: نوع من الطيب./النصيف: قيل الخمار، وقيل ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها.

٥. حبتر: حبتر القصير وهنا اسم رجل./عضب: العضب هو السيف.

فغادر خلفه يكبو لقيطاً ... له من حدٍّ واكفةٍ نصيف[1]

كأن جماجم الأبطال لما ... تلاقينا ضحىً حدجٌ نقيف[2]

وحامى كل قوم عن أبيهم ... وصارت كالمخاريق السيوفُ

ترى يمنى الكتيبة من يليها ... يخرُّ على مرافقها الكتوف

لنا شهباء تنفي من يلينا ... مضرّجةٌ لها لونٌ خفيف

وذبيانية أوصت بنيها ... بأن كذب القراطف والقروف[3]

تجهزهم بما وجدت وقالت ... بنيّ فكلكم بطلٌ مسيف

فأخلفنا مودتها فقاظت ... وماقي عينها جذِلٌ نطوف[4]

إذا ما أبصرت نَوْحاً أتته ... تُرِنُّ ورجّع كفيها خَنوف[5]

ليبك أبا رواحةَ جَمْلُ خيلٍ ... وقومٌ قد أعزّهمُ المُضيف

ينادي الجانبان بأن أنيخوا ... وقد عرَس الإناخة والوُقوف[6]

وكان الأيمنون بني نُمَير ... يسير بنا أمامهم الخليف

فلا جُبنٌ فينكل إن لقينا ... ولا هزمُ الجيوش لنا طريفُ

تركنا الشِّعْب لم نَعقِل إليه ... وأسهلنا كما علم الحليف

نسوق به النساء مُشَمَّراتٍ ... يخالطها مع العرق الخشيف[7]

---

١. نصيف: حق.

٢. حدج:/الحدج هنا حمل البطيخ والحنظل ما دام رطباً. وما زال الناس في الجزيرة العربية يسمون الحنظل حدجاً./نقيف: قيل النقف كسر الهامة الدماغ، ونقفت الحنظل أي شققته.

٣. كذب : هنا بمعنى عليكم ، كما ورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله : كذب عليكم الحج .. الحديث أي وجب ./القراطف: القرطفة: القطيفة المخملة./القروف: جمع قرف وهو وعاء من أدم يدبغ بقشور الرمان وهو يطلق حتى الآن في بلاد شهران على الوعاء الجلدي الكبير الذي يستخدم لحمل التبن وغيره . أي عليكم بالقراطف والقروف فاغنموها.

٤. جذل: سقط هدبها أي أقامت القيظ تبكي عليهم. /نطوف: تنطف بالدمع.

٥. ترن: تبكي وتنوح.

٦. عرَس الإناخة: لعله طابت الإناخة

٧. الخشيف: الماء تحت الرمل.

إذا استرْخت حبالُ القوم شُدّت ... ولا يثني لقائمة وظيف

تركْن بطون صارات بليل ... مطافيل الرباع بها خلوف[1]

فظلّ بذي معارك كل مُربا ... ونجى ربه الهزمُ الخفيفُ[2]

من اللائي سنابكهن شُمٌ ... أخفّ مُشاشة لبن وريف[3]

فلما أن هزمنا الناس جاءت ... وُفودٌ من ربيعتنا تزيف

وشقٌ ساقطٌ بضلوع جَنبٍ ... رجُوف الرجل منطقه نسيف

أغرّ كأن جبهته هلال ... بظلم الجار والمولى عيوف

وقد أسرت بارق في ذلك اليوم سنان بن أبي حارثة المرِّي وكان حاميه من بني ذبيان ، ثم منُّوا عليه فأطلقوه أملاً في ثوابه، وبعد حين أتوه فلم يصنع بهم خيراً. فقال المعقِّر في ذلك:

متى تك في ذبيان منك صنيعةٌ ... فلا تحمدنّها الدهر بعد سنان

يضل فينأى محسنٌ بثوابه ... بكم مائة يحدو بها فُرسان

مخاضٌ أؤديها وجلّ لقائحٌ ... وأكرم مثوى منكم من أتاني

فجئناه للنعمى فكان ثوابه ... رغوثاً ووطباً خازراً مذقان

وظلّ ثلاثاً يسأل الحيَّ ما يرى ... يؤامرهم فينا له أملان

فإن كنت هذا الدهر لا بدّ شاكراً ... فلا تثقنّ بالشكر في غطفان[4]

---

١. مطافيل الرباع : نوق معها أولادها.
٢. أي نجا الفرس الخفيف السريع صاحبه.
٣. سنابكهن: السنبك مقدمة الحافر .
٤. رغوثاً: الشاة الرغوث أي المرضع.الوطب: سقاء اللبن. المذيق: هو اللبن الممزوج بالماء.

عبيد بن عبدالعزى السلامي

وإنِّي لصرّامٌ ولم يُخلق الهوى جميلٌ فراقي حين تبدو الشرايع

وإني لأستبقي إذا العسر مسّني بشاشة نفسي حين تبلى المنافع

عبيد بن عبدالعزى السلامي

هو شاعر من بني سلامان الذين ينتسب إليهم الشنفرى - إن صحت الرواية - جاهلي لم ترد ترجمته في الكتب التي وقعت بين يدي، كما لم أجد من أشعاره إلا ما أورده ابن ميمون في كتابه منتهى الطلب، والذي أورد من شعره ثلاث قصائد ذكرها كلها صاحب كتاب قصائد جاهلية نادرة:

قال في قصيدة رائعة فيها من سمو معاني الرجولة والإباءة وحسن الخلق الكثير، وفيها من الشجاعة وأخلاق الفرسان ما يسمو إليه كل شريف:

ألا هل فؤادي إذ صبا اليوم نازعُ ... وهل عيشنا الماضي الذي زال رايع[5]

وهل مثل أيام تسلّفن بالحِمى ... عوايد أو عيشُ الستارين راجع[6]

كأن لم تجاورنا رميمٌ ولم نقم ... بغيضِ الحِمى إذ أنت بالعيش قانعٌ[7]

وبلّت بعد القُرب سُخْطاً وأصبحت ... مضابعةً واستشرقتْك الأصابعُ[8]

وكلُّ قرينٍ ذي قرينٍ يودّه ... سيفجعه يوماً من البين فاجعُ

لَعمْري لقد هاجت لك الشّوق عرصة ... بمرّان تعفوها الرياح الزعازع[9]

١. أبو عبدالله محمد بن عمران المرزباني، معجم الشعراء، مكتبة القدس ودار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ص ٩٢.
٢. المرجع السابق نفس الصفحة..
٣. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، تصحيح وتعليق الأستاذ د. ف كرنكو، مكتبة القدس ودار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ص ٢٠٤.
٤. أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي، نسب معد واليمن الكبير ، ص ٤٦٤.
٥. صبا: اشتاق ، ويطلق على الميل إلى الجهل./نازع: منته عنه./رايع: من الريع وهو العود والرجوع.
٦. تسلفن: قضين./الستاران: موضع.
٧. رميم: لعلها حبيبته.
٨. مضابعة : غاضبة وساخطة (كذا قال الشارح) والضبع: هو الشر وفي اللسان: قال ابن الأعرابي: قال العقيلية: كان الرجل إذا خفنا شره فتحول عنا أوقدنا ناراً خلفه، قال : فقيل لها : ولم ذلك؟ قالت: لتتحول ضبعه معه، أي ليذهب شره معه.
٩. العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء والجمع عراص وعرصات، وما زالت تلك الكلمة دارجة بين بعض قبائل الحجاز./مران: موضع.

بها رَسْمُ أطلال وخَيْمٌ خواشعٌ … على آلهنّ الهاتفات السّواجع[1]

فظلت ولم تعلم رميمُ كأنني … مهمٌّ ألثتّه الديون الخوالع[2]

تذكر أيام الشباب الذي مضى … ولما نزعنا بالفراق الروايع

بأهلي خليلٌ إن تحمَّلتُ نحوه … عصاني وإن هاجرته فهو جازع

وكيف التعزي عن رميم وحبها … على النأي والهجران في القلب نافع

طويت عليه فهو في القلب شامة … شريك المنايا ضُمِّنته الأضالع

وبيضٍ تهادى في الرِّياط كأنها … نهى تَسْلَسٍ طابت لهن المراتع[3]

تخيرن منا موعداً بعد رِقْبةٍ … بأعْفَر تعلوه الشُّروج الدوافع[4]

فجن هُدُوًّا والثياب كأنها … من الطلِّ بلَّتْها الرِّهام النواشع[5]

جرى بيننا منهم رسيسٌ يزيدها … سَقاماً إذا ما استيقنته المسامع[6]

قليلاً وكان الليل في ذاك ساعةٌ … فقُمن ومعروف من الصبح صادعٌ[7]

وأدبرْن من وجهٍ بمثل الذي بنا … فسالت على آثارهن المدامع

يزجِّين بِكْراً ينهزُ الرَّيطُ مشيها … كما مار ثعبان الفضا المتدافع[8]

تبادر عينيها بكحلٍ كأنه … جمَانٌ هوى من سلكه متتايع[9]

وقمنا إلى خوص كأن عيونها … قِلاتٌ تراخى ماؤها فهو واضع[10]

---

١. آلهن: الآل الخشب ، أي على أعوادهن.

٢. ألثته: ألث عليه أي ألحّ عليه.

٣. الرياط: جمع ريطة وهي الملاءة إذا كانت من قطعة واحدة./النهى: الغدير./تسْلس: مثل سلسل، وقد شبه رياطهن البيض بماء الغدير السلسال.

٤. رقبة: انتظار./بأعفر: ظاهر التراب./ الشروج الدوافع: مسايل الماء المتدافعة.

٥. الرهام: جمع الرهمة وهي المطرة الضعيفة الدائمة./النواشع: التي تشمُّ لطيبها./والنشوع: السعوط.

٦. الرسيس: أول مسّ الحمى.

٧. معروف من الصبح: أوائله.، وأعراف الرياح والسحاب أوائلها.

٨. يزجين: يسقْن ويدفعن./ينهز: يحرك ويضرب./مار: تحرك وجاء.

٩. الجمان: اللؤلؤ الصغير./متتايع: سائل. تاع الشيء يتيع إذا سال على الأرض.

١٠. خوص: جمع خوصاء، وهي الناقة الغائرة العينين./قلات: نقرات في الجبل يستنقع فيها ماء المطر

فولّت بنا تغشى الخَبار ملحّةً ... معاً حولها واللاقحات الملامع[1]

وإنّي لصرّامٌ ولم يُخلق الهوى ... جميلٌ فراقي حين تبدو الشرايع[2]

وإني لأستبقي إذا العسر مسّني ... بشاشة نفسي حين تبلى المنافع

وأعفي عن قومي ولو شئت نوَّلوا ... إذا ما اشتكى المُلحِفُ المتضارع[3]

مخافة أن أقلى إذا جئت سائلاً ... وترجعني نحو الرجال المطامع

فأسمع مَنّاً أو أُشرِف مُنْعِماً ... وكلُّ مصادي نعمةً متواضع[4]

وأعرض عن أشياء لو شئت نلتُها ... حياءً إذا ما كان فيها مقاذع[5]

ولا أدفع ابن العم يمشي على شفا ... ولو بلغتني من أذاه الجنادع[6]

ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه ... لترجعه يوماً إلي الرواجع

وأفرِشه مالي وأحفظ عيبه ... ليسمع أني لا أجازيه سامع

وحسبك من جهل وسوء صنيعة ... معاداة ذي القربى وإن قيل قاطع

فأسلِم عناك الأهل تسلم صدورهم ... ولا بد يوماً أن يروعك رايع

فتبلوه ما سلّفت حتى يرده ... إليك الجوازي وافراً والصّنايع

وإن تُبّل عفواً يعف عنك وإن تكن ... تقارع بالأخرى تصبك القوارع

ولا تبتدع حرباً تطيق اجتنابها ... فيلحَمَك الناسَ الحروبُ البدايع

لعمري لنعم الحيُّ إن كنت مادحاً ... هم الأزد إن القول بالصدق شايع

---

١. الخبار: الأرض الرخوة ذات الحجارة./الحول: جمع حائل النوق إذا ضربها الفحل فلم تلقح./اللاقحات الملامع: الإبل الحوامل التي أشرقت ضروعها للحمل واسودّت حلماتها.
٢. صرّام: من الصرم وهو القطع والهجر.
٣. الملحف: الملح في الطلب.
٤. مصادي نعمة : أي متعرض لها.
٥. المقاذع: الفحش.
٦. الجنادع: جنادع الشر أي أوائله.

كرام مساعيهم حسامٌ سماعهم ... إذا ألغت الناس الأمور الشرايع

لنا الغُرف العليا من المجد والعلا ... ظفرنا بها والناس بعد توابع

لنا جبلا عزٍّ قديم بناهما ... تليعان لا يألوهما من يتالع[1]

فكم وافدٍ منا شريفٍ مقامُه ... وكم حافظٍ للقِرْن والقِرْنُ وادعُ[2]

ومن مطعمٍ يوم الصبا غير جامدٍ ... إذا شصّ عن أبنائهن المراضع[3]

يشرِّف أقواماً سِوانا ثيابنا ... وتبقى لهم أن يلبسوها سمايع[4]

إذا نحن ذارعنا إلى المجد والعلا ... قبيلاً فما يسطيعنا من يذارع[5]

ومنّا بنو ماء السماء ومُنذر ... وجفنة منّا والقروم النزايع[6]

قبائل من غسان تسمو بعامرٍ ... إذا انتسبت والأزدُ بعدُ الجوامع

أدان لنا النعمان قيساً وجُنْدُماً ... أدان ولم يمنع ربيعة مانع

وبعد هذه الرئعة أورد صاحب منتهى الطلب قصيدة أخرى قال فيها عبيد:

أرسمَ ديارٍ بالستارين تَعرفُ ... عَفَتْها شمالٌ ذات نَيْرينِ حَجْرَفُ[7]

مبكرةٌ للدار أيما ثُمامُها ... فيبقى وأيْما عن حصاها فتقرفُ[8]

حرونٌ على الأطلال من كل صَيفةٍ ... وفقّا عليها ذو عثانين أكلف[9]

١. تليعان: التلع هو ما ارتفع من الأرض، وتليعان: طويلان./ ويتالع: يطاول.
٢. القِرْن:الكفء والنظير في الشجاعة والحرب.
٣. يومَ الصبا: في اشتداد البرد./شصّ: منع
٤. سمايع: هنا الذكر المسموع الحسن الجميل./يريد بقوله : تكون ثيابهم إذا لبسها غيرهم شرفاً لهم ومكرمة.
٥. ذارعنا: من المذارعة وهي المسابقة.
٦. القروم: جمع قرم وهو السيد./النزايع: الذين يحنون إلى أوطانهم الأصلية.
٧. الشمال: ريح الشمال./ذات نيرين: أي ذات طريقين /حرجف أو حجرف : ريح باردة.
٨. أيما: لغة في أما./الثمام: نبت له خوص./تقرف: تنبذ.
٩. فقّا: أي فقأ، وتفقّأت السحابة عن مائها أي تشققت./ذو عثانين: أي مطر بين السماء والأرض، وعثنون الريح والمطر: أولهما./الأكلف: الذي بين السواد والحمرة، والكلفة حمرة كدرة تعلو الوجه.

إذا حنّ سُلاّف الربيع أمامَها ... وراحت رواياهُ على الأرض يرجُفُ[١]

فلم تَدَعِ الأرواحُ والماءُ والبِلى ... من الدار إلا ما يشوق ويشعِف[٢]

رسوماً كآيات الكتاب مبينةً ... بها للحزين الصّبِّ مبكى وموقفُ[٣]

وقفت بها والدمع يجري حَبابهُ ... على النحر حتى كادت الشمس تكسف[٤]

تذكرت أياماً تسلّفتُ لينها ... على لذةٍ لو يُرجَعُ المتسلِّف

كأنك لم تعهد بها الحيَّ حيرةً ... جميع الهوى في عيشه ما تُصَرَّف

إذ الناسُ ناسٌ والبلادُ بغرّة ... وأنت بها صبٌّ القرينةِ مُولِفُ[٥]

وقد كان في الهجران لو كنت ناسياً ... رميمَ وهل ينسى ربيعٌ وصيّف[٦]

ولم تنسني الأيام والبغي بيننا ... رميمٌ ولا قذْفُ النوى حين تُقذف

ولم يحلُ في عيني بديلٌ مكانها ... ولم يلتبس بي حبلُ من يتعطّف

وقد حلفَتْ والستر بيني وبينها ... بربِّ حجيج قد أهلّوا وعرّفوا

على ضُمّرٍ في الميس ينفخن في البُرى ... إذا شابكت أنيابها اللّجْنَ تصرفُ

لقد مسني منك الجوى غير أنني ... أخاف كما يخشى على ذاك أحلف

وكان صدودٌ بعدما أبطن الهوى ... قلوباً فكادت للذي كان تُجنَف[٧]

كترك الأميم الهائم الماء بعدما ... تنحّى بكفيه يسوف ويغرف[٨]

---

١. سلاّف الربيع: ما تقدم منه.
٢. الأرواح: والرياح والأرياح جمع ريح ./يشعف: شعفه الحب أي أحرقه.
٣. الصب: العاشق.
٤. حباب الدمع: معظمه.
٥. بغرة: بعيش غرير وهو الذي لا يفزع أهله.
٦. رميم: اسم أو لقب حبيبته.
٧. تجنف: تميل.
٨. الأميم : الذي يهذي من أم رأسه./يسوف: يشم.

وداويّــةٍ لا يأمـن الـركـب جوزها ... بها صارخات الهام والبوم يهتف[1]

دعـاني بها داعـي رميـمٍ وبيننا ... بهيم الحواشي ذو أهاليل أغضف[2]

تقحّمْت ليل العيس وهـي رديّـةٌ ... وكلّفتُ أصحابي الوجيف فأوجفوا

لنخبر عنها أو نرى سَرْو أرضها ... وقد يُتْعِب الركب المحبُّ المكلّفُ[3]

ولو لم تَمِلْ بالعيس معويّة العرى ... لمـال بها أيـكٌ أثيـثٌ وغـرْيَـفُ[4]

ومكنونةٌ سـود المجاثم لم يزل ... يهيئها للعَيكتين التلهّف[5]

وما العيش إلا في ثلاث هي المنى ... فمن نالها مـن بعد لا يتخوّف

صحابة فتيان على ناعجيّةٍ ... مناسمها بالأمعز المَحْلِ ترْعُفُ[6]

وكـأسٌ بأيدي الساقيين رويّـةٌ ... يمـدان راووقيهما حين تُنزَف[7]

وربّـةُ خدر ينفح المسك جيبها ... تضوّع ريّاهـا به حين تصدف[8]

إذا أسلبت فوق الحشيّات أشرقت ... كما أشرق الدَّعْص الهجانُ المصيّفُ[9]

وها هو يتحفنا برائعة أخرى يتبوأ فيها مكانة عالية من الوصف، وقد زج بألفاظ عربية عميقة المعاني وإن كان بعضها فيه من وحشي اللفظ، لكنها تعطينا صورة أوضح لما يتمتع به أصحاب تلك البلاد من فصاحة تفوق ما عليه شعراء آخرون عاشوا في نفس الحقبة من

١. الداوية: الفلاة الواسعة./جوزها: تجاوزها.
٢. بهيم الحواشي: مظلم الجوانب./أغضف: أسود.
٣. سرو أرضها: أي ما ارتفع من أرضها.
٤. معوية العرى: المعو هو الرطب وقيل التمر. والغريف: ضرب من الشجر.
٥. العيكتان: موضع في ديار بجيلة.
٦. ناعجيّة: الناعجية الناقة البيضاء.يقال هي التي يصاد عليها نعاج الوحش، والنواعج من الإبل : السراع./الأمعز: المكان الصلب الكثير الحصى.
٧. راووقيهما: الراووق هي المصفاة./تنزف: يذهب الخمر الذي فيها.
٨. تضوّع ريّاها: تعبق ريحها.
٩. أشرقت: غصّت./الهجان: البيض من الإبل.

الزمان في جزيرة العرب. كما تعطينا مدى بقاء أسماء رسوم كثيرة ما زالت تحمل أسماءها إلى اليوم.

يقول عبيد :

أتعرف رسماً كالرداء المحبر ... برامةَ بين الهضب والمتغمَّرِ[١]

جرَت فيه بعد الحيِّ نكباءُ زعزعٌ ... بهبوة جَيْلان من التُّرب أكدر[٢]

ومرتجزٌ جَونٌ كأن رُبابه ... إذا الريح زجّته هضاب المشقّر[٣]

يحُطّ الوعول العُصْم من كل شاهق ... ويقذف بالثيران في المتحير[٤]

فلم يتركا إلا رسوماً كأنها ... أساطير وحي في قراطيس مُقْتري[٥]

منازل قومٍ دمّنوا تَلَعَاته ... وسنُّوا السوام في الأنيق المنوّر[٦]

رَبيْعَهمُ والصيف ثم تحمَّلوا ... على جلّةٍ مثل الحنيّات ضمّر[٧]

شواكل عجعاج كأن زِقاقه ... بذكّارة عيطاءَ من نخلِ خيبر[٨]

به من نِضاح الشَّوْلِ ردْعٌ كأنه ... نُقاعة حنّاءٍ بماء الصنوبر[٩]

كسوها سُخام الريط حتى كأنها ... حدايق نخلٍ بالبرودين مُوقَرِ[١٠]

وقام إلى الأحداج بيض خرايدٌ ... نواعمُ لم يلقين بؤسى لمقفر[١١]

---

١. رامة والهضب والمتغمر: مواضع.

٢. هبوة جيلان : موضع.

٣. مرتجز: السحاب المتحرك الثقيل./الجون: الأسود./الرباب: السحاب الأبيض./زجّته: دفعته وساقته. /المشقر: حصن بالبحرين قديم.

٤. الوعول العصم: التي في يديها لون يخالف لونها كالبياض./المتحيرّ: الماء المتجمّع الراكد.

٥. الأساطير: هنا جمع سطر، يريد بها الخط والكتابة./الوحي: هنا الكتابة. المقتري: القارىء.

٦. دمّنوا تلعاته: التلعة ما ارتفع وانخفض من الأرض، يعني امتلأت بدمن بهائمهم./سنوا السوام: أرسلوها إلى المرعى./الأنيق: المعجب./المنور: الذي ظهر فيه النور وهو الزهر.

٧. الجّلة: جمع جليل وهو المسنّ من الإبل./الحنيات: جمع حنية وهي الأقواس، شبه الإبل بالأقواس المنحنية وذلك عند هزالها.

٨. شواكل: شبيهات./عجعاج: كثير العج وهو الهدير والصياح./الذكارة: حمل النخل./عيطاء: طويل.

٩. نضاح: رش وسقي./الشول: جمع شائلة وهي الناقة ارتفع ضرعها وقلّ لبنها ومضى على نتاجها أكثر من ثمانية أشهر./ردع: لطخ وأثر.

١٠. سخام الريط: السخام اللين الملمس الناعم ، يقال: ثوب سخام المس إذا كان لين المس، والريط: الملاءة./البرودان: موضع./نخل موقر: كثير الحمل.

١١. الأحداج: مركب من مراكب النساء وهو جمع حدج./خرائد: جمع خريدة وهي الحيية من النساء./لم يلقين بؤسى لمقفر: أي سمينات مترفات لم يصبهن البؤس ليضعفن ويهزلن.

رِبايب أمـوالٍ تِـلادٍ ومنصبٍ من ... الحَسَـب المـرفـوع غيـر المقصِّـر

هدَيْن غضيض الطرف خمصانة الحشا ... قطيع التّهادي كاعباً غير مُعصِر[1]

مبتلّة غـرّا كـأن ثيـابهـا على ... الشمس غِـبَّ الأبـرد المتحسّر[2]

قضوا ما قضوا من رحلةٍ ثم وجَّهوا ... يمامة طود ذي حماطٍ وعَرعر[3]

وعـاذلـة ناديتـهـا أن تلومني ... وقـد علمت أني لها غـير موثر

على الجار والأضياف والسايل الذي ... شكا مَغرماً أو مسه ضرٌّ معسر

أعاذل إن الجود لا ينقص الغِنى ... ولا يدفع الإمساك عن مال مكثر

ألم تسألي والعلم يشفي من العمى ... ذوي العلم عن أنباء قومي فَتُخْبَري

سلامان إن المجد فينا عَمارةٌ على ... الخلُق الـزاكـي الـذي لم يكدر[4]

بقيـة مجـد جـدنـا الأول الـذي ... بـنـى ميـدعـان ثـم لم يتغير[5]

أولـئـك قـومٌ يـأمـن الجـار بينهم ... ويشفق من صوْلاتهم كل مُخْفَر

مرافيد للمولى محاشيد للقِرى ... على الجـار والمستأنس المتنوّر[6]

إذا ظِـلُّ قـومٍ كـان ظـل غيايةٍ ... مُذَعْذِعُه الأريـاحُ من كل مَفْجَر[7]

فـإنّ لنا ظـلاّ تكاثف وانطوت ... عليه أراعيـلُ العديد المجمهر[8]

لنا سادة لا ينقض الناس قولهم ... ورجـراجـة ذيّـلـةٌ في السَّنوَّر[9]

---

١. خمصانة الحشا: ضامرة البطن./قطيع التهادي: أي إنها سمينة وعندما تمشي تتهادى بضعف وتمايل./المعصر: الجارية عند بلوغها.
٢. مبتلة: أي حسنة الخَلْق مفصلة اللحم لم يركب بعضه بعضاً. /غراء: أي بيضاء./الأبرد: سحاب فيه برد./المتحسر: المتكشف.
٣. يمامة طود: موضع./حماط: شجر التين الجبلي.
٤. عمارة: الذي يعمر طويلاً.
٥. ميدعان : هو جدهم ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد.
٦. مرافيد: كثيرو الرفد وهو العطاء والصلة.
٧. غياية: ضوء شعاع الشمس./تذعذعه الأرياح: تفرقه الرياح./المفجر: المكان الذي ينفجر فيه الماء.
٨. الأراعيل: أراعيل الرياح أوائلها.
٩. رجراجة : كتيبة ضخمة كأنها تتمخض ولا تسير لكثرتها./ذيّالة:تجر الحديد ./السنور: السلاح وقيل الحديد كله.

تجنُّهم من نسج داود في الوغى ... سرابيل حيصت بالقتير المسمّر[١]

وطئنا هلالاً يوم ذاجٍ بقوّة ... وصفناهم كرْهاً بأيدٍ مؤزَّر[٢]

ويوماً بتبلالٍ طممنا عليهم ... بظلما بأس ليلها غير مسفر[٣]

وأفناءُ قيسٍ قد أبدنا سرَاتهم ... وعبساً سقينا بالأُجاج المعوّر[٤]

وأصرام فَهْمٍ قد قتلنا فلم ندع ... سوى نِسْوةٍ مثل البليات حسّر[٥]

ونحن قتلنا في ثقيف وجوّست ... فوارسنا نصراً على كل محضر[٦]

ونحن صبرنا غارةً مفرجيّة ... فُقيماً فما أبقت لهم من مخبر[٧]

ودسناهم بالخيل والبيض والقنا ... وضرب يفضُّ الهام في كل مغفر[٨]

ورحنا ببيض كالظباء وجاملٍ ... طوال الهوادي كالسفين المقير[٩]

ونحن صبَحنا غير غُدّر بذمة ... سُليْم بن منصورٍ بصلعاء مُذْكِرِ[١٠]

قتلناهم ثم اصطحبنا ديارهم ... بحُمرة في جمع كثيف مخمّر[١١]

تركنا عوافي الرُّخْم تنشر فيهمُ ... عفاري صرعى في الوشيجِ المكسّر[١٢]

وبالغور نطنا من على عصابة ... ورحنا بذاك القيروان المقطّر[١٣]

وخثعمَ في أيامِ ناس كثيرة ... همطناهم همط العزيز المؤسّر[١٤]

---

١. سرابيل: دروع ./حيصت:شدّت./القتير: رؤوس المسامير في الدروع./المسمّر: المشدود بالمسامير.
٢. وصفناهم : جعلناهم وصفاء والوصفاء الخدم والوصيف الخادم الصغير غلاما أو جارية.
٣. يوم ذاج وتبلال : أسما موضعين سمي بهما يومان لهم ./طممنا عليهم: غلبناهم.
٤. المعوّر: الفاسد. والمعوّر الذي يستسقي ولم يسقه أحد.
٥. أصرام: فرق./فهم: قبيلة فهم..
٦. جوست نصراً: الجوس هو الدوس أي داسوا أعداءهم منتصرين عليهم.
٧. غرة مفرجية: أي منكشفة. ولعله نسبها إليهم أبناء مفرج.
٨. المغفر : ينسج في الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.
٩. البيض : النساء./وجامل: القطيع من الإبل مع رعاته وأربابه./طوال الهوادي: طوال الأعناق.
١٠. الصلعاء: الداهية./مذكر: شديدة.
١١. جمع مخمر: كثير مزدحم./وخمر الناس: زحمتهم.
١٢. عفاري: أي معفرين بالتراب/الوشيج: شجر الرماح.
١٣. الغور: موضع /نسطنا: قتلنا./القيروان: القافلة.
١٤ همطناهم: خبطناهم./والهمط: الظلم والخبط.

سبينا نساء من جليحة أسلمت ... ومن راهب فوضى لدى كل عسكر

ونحن قتلنا في النواصف شنفرى ... حديد السلاح مقبلاً غير مدبر

ومن سائر الحيين سعدٍ وعامرٍ ... أبحنا حمى جبارها المتكبر

منعنا سراة الأرض بالخيل والقنا ... وأيأس منا بأسنا كل معشر

إذا ما نزلنا بلدةً دُوِّخَت لنا ... فكنّا على أربابها بالمخير

بنو مفرجٍ أهل المكارم والعلا ... وأهل القباب والسّوام المعكّر[1]

فمن للمعالي بعد عثمان والندى ... وفصل الخطاب والجواب الميسَّر

وحمل الملمات العظام ونقضها ... وإمرارها والرأي فيها المصدر

كأن الوفود المبتغين حباءهم ... على فيض مدّاد من البحر أخضر[2]

فكم فيهم من مستبيحٍ حمى العِدا ... سبوتٍ إلى الغايات غير عذوّر[3]

وهوب لطوعات الأزمّة في البرى ... وللأفق النّهد الأسيل المعذّر[4]

نَمَته بنو الأرباب في الفرع والذرا ... ومن ميدعان في ذباب وجوهر

لُبابُ لُبابٍ في أروم تمكنت ... كريمَ غداة الميس المتحضَّر

فأكرم بمولود وأكرم بوالدٍ ... وبالعمِّ والأخوال والمتهصَّر

ملوك وأربابٌ وفرسان غارةٍ ... يحوزونها بالطعن في كل محجر

---

١. السوام المعكر: الإبل الكثيرة./والعكر: جمع عكرة وهي القطيع من الإبل.
٢. الحباء: العطية والهبة.
٣. عذوّر: سيء الخلق.
٤. البري: جمع بارية وهي حلقة من صفر تكون في أنف البعير.الأفق: الفرس الرائع./نهد: فرس نهد أي جسيم.

إذا نـالـهـم حَـمَـشٌ فــإن دواءه ... دمٌ زلَّ عـن فـودي كـمـيٍّ معفّر[1]

مُدانيهم يعطي الدّنـيّـة راغماً ... وإن دايـنـوا بــاؤوا بـريم مـوفّر[2]

❊ ❊ ❊

١. الحمش: الغضب وأحمشت الرجل إذا أغضبته. الكمي: الفارس المدجج بالسلاح.
٢. الريم: الريادة والفضل.

عبدالله بن همام السلولي

شاعر السياسة الجريء

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا
إذا ماماتكسرىقامكسرى نعُدُّ ثلاثة متتابعينا
وكلُّ الناس نحن مبايعوه وإن شئتم فعمكمُ السمينا
وإن جئتم برِمْلة أو بهندٍ نبايعها أميرة مؤمنينا

هو عبدالله بن همام بن نبيشة بن رياح.

شاعر أموي من قبيلة بني سلول من أهل بيشة لكنه عُدّ كوفيّاً لإقامته في الكوفة وصلته بولاتها.

كان يلقب بالعطّار لطيب شعره وحسنه، كما وصفه السندوبي بأنه من أكابر الشعراء الذين لهم قول في سياسة الدولة[1].

وحقيقة فهو شاعر سياسي جريء قل أن يوجد مثله، وقصائده التي سوف نذكرها تدل على قوة في المعاني وسجية مطلقة من غير تملق أو تكلف .

ولعل جرأته هي التي زادت في قيمة شعره، فقد هاجم الخلفاء وولاتهم وخاصة في وصفه لهم بالغفلة عن الرعية والاهتمام بذواتهم ومتعهم الخاصة.

والناس غالباً ما تستمتع بسماع ما ينال ملوكهم وأمراءهم لعجزهم هم عن قول ما يريدون قوله ولو كان باطلاً، فهؤلاء الشعراء والخطباء وغيرهم يقولون بالنيابة عنهم ما يجول في خواطرهم ويتحملون عنهم تبعات ما تكنه صدورهم بما نطقته ألسنتهم أو كتبته أقلامهم.

---

١. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٣ ص ١٨٦ .

من حكم ابن همام:

لابن همام أبيات متفرقة في الحكمة لكنها قليلة بالنسبة لخط شعره الذي تخصص به وهو السياسة. وقد ركز في نصحه في الغش، ربما أنه قد كان ضحية لهذا الخلق الدنيء من قبل أقرب الناس إليه. قال أبياتاً عدة وربما قال بعضها مرات بدّل وعدل من وقت لآخر فيها، أو لعل الرواة هم من بدلها أو زاد ونقص فيها وقد وردت كلها في كتاب الحماسة للبحتري:

ألا ربّ ذي نصح قد تستغشّه ومن جاهد بالغش يحسب ناصحا[1]

وروي:

ألا رب من تغتشه لك ناصحٌ ومؤتمن بالغيب غير أمين

فلا يختلبك القول لا فعل تحته فكم من فصيح باللسان خؤون

وروي:

ربّ من اغتشه ينصحني وأي نصح بغيب قد يخون

وقال أيضاً:

رأيتك تقصي من يودّك قلبه وتدني الذي يطوي الأذى في الجوانح

وقد يستغش المرء من لا يغشه ويأمن بالغيب امرأً غير ناصح

١. تستغشه: تظنه غشاشاً.

وقال في البخل :

متى ما أقل يوماً لطالب حاجةٍ نعم أقضها قِدْماً وذلك من شكلي
وإن قلت : لا. بتتُّها من مكانها ولم أوذه فيها بجرٍّ ولا مطل[1]
ولَلبخلة الأولى أقلّ ملامةً من الجود بَدءاً ثم تثنيه بالبخل

وقال في المال :

فأخلف وأتلف إنما المال عارة فكلّه مع الدهر الذي هو آكله
فأهون مفقود وأيسر هالكٍ على الحيِّ من لم يبلغ الحيَّ نائله

حياته :

ليس لهذا الشاعر سيرة عرفت عنه، ولكنها وقائع في حياته سجلها هو بكلماته حفظها الرواة في كتب التاريخ والأدب، وسوف أكتفي بإيراد بعض من جوانب حياته تاركاً بعض القصائد لعلي أجد غيرها مع التفصيل المبسط عن مناسباتها.

أخباره عند يزيد بن معاوية :

حينما مات معاوية (رضي الله عنه) اجتمع الناس بباب يزيد، لكنه لم يخرج إليهم حزناً على أبيه إلا بعد أربعة أيام فدخل الناس فرأوه حزيناً جزعاً، فلم يدروا هل يعزونه في أبيه أم يهنئونه بالخلافة. فقام عاصم بن أبي صيفي وتكلم فلما انتهى أمره بأن

١. بتتها: قطعتها ، أي أنهيت المسألة.

يدنو منه ويجلس بجانبه، ثم قام عبدالله بن مازن فتكلم فأمره أن يدنو منه ويجلس بجانبه، ثم قام عبدالله بن همام فقال:

- آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزيّة وصبّرك على المصيبة وبارك لك في العطية، ومنحك محبة الرعية، مضى معاوية لسبيله غفر الله له وأورده موارد السرور، ووفقك بعده لصالح الأمور، فقد رزئت جليلاً وأعطيت جزيلاً، جئت بعده للرئاسة ووليت السياسة، أصبت بأعظم المصائب ومنحت أفضل الرغائب، فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكره على أفضل العطية، وأحدث لله حمداً، والله يمتعنا بك ويحفظك لك وعليك. وأنشأ يقول:

اصبر يزيد فقد فارقت ذا كرمٍ واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا

لا رُزء أصبح في الأقوام قد علموا كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

أصبحت راعيَ أهل الدين كلِّهمُ فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا

وفي معاوية الباقي لنا خلفٌ إذا نُعيت ولا نسمع بمنعاكا

فأمره يزيد بالدنوّ وأجلسه بالقرب منه ثم قام الناس يعزونه ويهنئونه.

وقيل بأنه الذي حدا يزيد على البيعة لابنه معاوية في قصيدته التي قال فيها :

تعزوا يا بني حرب بصبر ... فمن هذا الذي يرجو الخلودا
لعمرو مناخهن ببطن جمعٍ ... لقد جهزتُهم ميتاً فقيدا
لقد وارى قليبكمُ بياناً ... وحِلْماً لا كفاءَ له وجودا
وجدناه بغيضاً في الأعادي ... حبيباً في رعيته حميدا
أميناً مؤمناً لم يقضِ أمراً ... فيوجد غِبُّه إلا رشيدا
فقد أضحى العدوُّ رضي بالٍ ... وقد أمسى التقيُّ به عميدا
فعاض الله أهل الدين منكم ... وردّ لنا خلافتكم جديدا[1]
مُجانبة المُحاق وكل نحسٍ ... مقاربة الأيامن والسعودا
خلافة ربكم حاموا عليها ... ولا ترموا بها الغرض البعيدا
تلقفها يزيد من أبيه ... وخذها يا معاوي من يزيدا
فإن دنياكم بكم اطمأنت ... فأولوا أهلها خلُقاً سديدا
وإن ضجرت عليكم فاعصبوها ... عصاباً تستدر به شديدا

ومع معاوية بن يزيد :

وإن كان قيل بأن ابن همام هو من حرّض يزيد على أخذ البيعة لابنه معاوية وأشك في ذلك فما قصيدة ابن همام إلا عذر وجده المؤرخون، فيزيد استلمها وراثة من أبيه فمن يسلمها لو لم يسلمها

١. عاض: من العوض .

ابنه، أعني أن الذي تسلمها بالوراثة لا يحتاج إلى من ينصحه بتسليمها كذلك، أقول : وإن كان كما قالوا فإنه لم يدم ابن سلول طويلاً على هذا الولاء والمحبة لهم رغم أن في أبياته مثل:

وفي معاوية الباقي لنا خلفٌ إذا نُعيت ولا نسمع بمنعاكا

والقائل:

فعاض اللّه أهل الدين منكم وردّ لنا خلافتكم جديدا

فقد أتى مؤخراً ناقماً على هذا التوريث وشبهه بتوريث الأكاسرة لملكهم وانقلب عليهم معبراً عن ذلك التغيير بقصيدته التي قال فيها:

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى نعُدُّ ثلاثة متتابعينا
وكلُّ الناس نحن مبايعوه وإن شئتم فعمكمُ السمينا
وإن جئتم برِمّلة أو بهندٍ نبايعها أميرة مؤمنينا
نثبت ملككم وإذا أردتم بنا الصلعاء قلنا مخبتينا
فيا لهفي لو أن لنا أنوفاً ولكن لن نعود كما غنينا
إذن لضربتم حتى تعودوا بمكة تلحسون بها السخينا[1]
حُشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا

١. السخينا : السخينة كانت عيرة لبني أمية في مكة .

ولكن هذه في الغالب طبيعة الكثير من متملقي الشعراء ما داموا تحت تأثير كرم الولاة أو أمل كرمهم وحتى تحت أنظارهم تملقوهم، فإذا حرموا من عطاياهم أو ابتعدوا عنهم سلقوهم بألسنة حداد.

فلما سمع معاوية بن يزيد هذه القصيدة قال ساخراً:

- ما ترك ابن همام شيئاً، عيرنا بالسخينة، وذكر أمهاتنا، وتهددنا، وذكر أنه لو شرب من دمائنا ما اشتفى، اللهم اكفناه. ثم أمر ابن زياد بإحضاره.

فقبض عليه ابن زياد وكفل به أحدهم ليوصله إلى الخليفة ، لكنه هرب منه ولجأ إلى معاوية فاستجار به واعتذر منه، فأمنه وصفح عنه وكتب إلى ابن زياد يأمره بعدم التعرض له. فقال في ذلك :

جعلت الغواني من بالكا ... ولم ينهك الشيب عن ذلكا

أقول لعثمان : لا تَلْحني ... أفق عَثْمَ عن بعض تعذالكا

غريب تذكّر إخوانه ... فهاجوا له سقماً ناهكا

وكرّهني أرضكم أنني ... رأيت بها أسداً ناهكا

فلما خشيت أظافيره ... نجوت وأرهنتهم مالكا

عريفاً مقيماً بدار الهوا ... ن أهوِن عليّ به هالكا

ويمّمتُ أبيض ذا سؤددٍ ... علا ذروة المجد والحاركا

فلمّا أنخت ببابه رأيت خليفتنا ذلكا
فقلت: أجرني أبا خالدٍ وإلا فهبني امرأً هالكا
فجاد بنا ثم قلت أعطفي بنا يا (صفي) ويا (عاتكا)
فأطّت لنا رحِمٌ برةٌ ولم تحقر النسب الشابكا
فكم فرّجتّ بك من كربةٍ ومن خلفه عند أبوابكا
وكان وراءك ضرغامة تُوائل منه بحوبائكا
فيا ابن زيادٍ وكنت امرأً كما زعموا عابداً ناسكا
فإنّ معي ذمّة من يزيد وإني أعوذ بإسلامكا
من ان أُظلمَ اليوم أو أن تطيـ ـع بي الكاذب الآثم الآفكا
فلولا الثقال شفاعاتهم وعهد الخليفة لم آتكا
فقد خُطّ لي الرقّ فيه الأمان إليك مخافة أنبائكا
فلا تحقرَنّه فقد خُط لي رقىً من مخافة حيّاتكا
وأحضرتُ عذراً عليه الشهو د إن قائلاً ذاك أو تاركا
وقد شهد الناس عند الإما م أنّي عدوٌّ لأعدائكا

فلما قدم على ابن زياد وسمع القصيدة أمر له بجائزة، وأطلق عريفه مالكاً وكان قد حُبس، ولكن جائزته لم تدفع له ، وبعد مدة جاءه مرة أخرى، فقال له ابن زياد : ألك حاجة ؟ قال ابن همام:

نعم حاجةٌ كُلِّفتها القيظَ كلَّه ... أُراوِحُها البردين حتى شقيتها

يُعاودها حسان عمرو بن نافع ... فحسّان يحييها وعمرٌو يميتها

فامر ابن زياد كاتبيه عمرو بن نافع وحسّان وليّ الأنصار بدفع جائزته إليه، فدفعاها.

رثاؤه عمر بن يزيد :

نزلت صاعقة على عمر بن يزيد بن معاوية فأهلكته ، فرثاه ابن همّام بقصيدته التي قال فيها:

عمر الخير يا شبيه أبيه ... أنت لو عِشت قد خلفت يزيدا

سُلِّط الحتف في الغمام عليه ... فتلقى الغمام روحاً سعيدا

أيها الراكبان من عبدشمس ... بلِّغا الشام أهلها والجنودا

أن خير الفتيان أصبح في لحـ ... ـد وأمسى من الكرام فقيدا

يبايع الوليد بن عبدالملك :

لما دفن عبدالملك بن مروان عام ٨٦هـ دخل الوليد المسجد فصعد المنبر واجتمع إليه الناس، فخطب فيهم فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان عل مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا، فكان أول من قام عبدالله بن همام السلولي كعادته فقال[١] :

١. تاريخ الأمم والملوك، ج٨ ص٥٩.

اللّه أعـطـاك الـتـي لا فوقها وقـد أراد المـلـحـدون عوقها

عنك ويـأبـى اللّه إلا سَوّقَها إلـيـك حتـى قـلـدوك طوقها

رسالته إلى عبدالله بن الزبير:

بعدما أعلن عبداللّه بن الزبير الخلافة لنفسه بمكة، وكان ابن همام من الذين رضوا بهذه الخلافة وباركوها، وكان عبداللّه بن الزبير قد أمّر على البصرة أخاه مصعب بن الزبير، فتزوج مصعب سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم فأمهرها ألف ألف ، فاستكثرها الناس وغضب ابن همام، فأرسل إلى عبداللّه بن الزبير مع أبي السلاس قصيدة قال فيها:

أبـلـغ أمـيـر المـؤمـنـين رسـالـةً من ناصح لـك لا يـريد خداعا

بضع الـفـتـاة بـألـف ألـف كاملٍ وتبيت سـادات الجـنـود جياعا

لـو لأبـي حفصٍ أقـول مقالتي وأبـــثُّ مـا أبـثـثـكـم لارتـاعـا

وأبو حفص هو الخليفة الراشد: عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه).

فلما وصلت القصيدة إلى عبداللّه بن الزبير قال:

- صدق والله لو نقول هذه المقالة لأبي حفص لارتاع من تزويج امرأة بألف ألف. ثم قال : إن مصعباً لما وليته البصرة أغمد سيفه وسلّ أيره.

وعزله عن البصرة وأمره أن يجيء على الجسر وقال: إني لأرجو أن يخسف الله بك فيها!.

فبلغ قوله هذا عبدالملك فقال: لكن عبدالله والله أغمد سيفه وأيره[1] وخيره.

ابن همام وثورة المختار :

حينما قام المختار بثورته في الكوفة وأخرج منها عاملها الذي كان لابن الزبير ، وكان ابن همام قد ضرب أبا عمرة أحد شيعة المختار حينما سمعه ينال من عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فجعل يتخفى من المختار وشيعته، حتى استطاع أن يأخذ الأمان من المقربين من المختار، فأمن ومدح المختار وشيعته بقصيدته التي قال فيها:

ألا انتسأتِ بالودِّ عنك وأدبرت … معالِنة بالهجر أمُّ سريعِ

وحمّلها واشٍ سعى غير مؤتل … فأبت بهمٍّ في الفؤاد جميع

فخفّض عليك الشأن لا يُردك الهوى … فليس انتقال خَلّة ببديع

١. أيره : ذكره.

وفي ليلة المختار ما يذهل الفتى ... ويلهيه رؤّد الشباب شموع
دعا يا لثارات الحُسين فأقبلت ... كتائب همدان بعد هزيع
ومن مذحج جاء الرئيس ابن مالك ... يقود جموعاً عُبئت بجموع
ومن أسدٍ وافى يزيد لنصره ... بكلّ فتىً حامي الذراع منيع
وجاء نعيم خير شيبان كلها ... بأمر لدى الهيجا أحدّ جميع
وما ابن شُميط إذ يحرض قومه ... هناك بمخذول ولا بمضيع
ولا قيس نهد، لا، ولا ابن هوازن ... وكل أخو إخباتة وخشوع
وسار أبو النعمان للّه سعيه ... إلى ابن الياس مصجراً لوقوع
بخيلٍ عليها يوم هيجا دروعها ... وأخرى حسوراً غير ذات دروع
فكرّ الخيول كرة ثقفتهم ... وشدّ بأولاها على ابن مطيع
فولّى بضرب يشدخ الهام وقّعه ... وطعن غداة السِّكّتين وجيع
فحوصر في دار الإمارة بائياً ... بذلٍّ وإرغام له وخضوع
فمنّ وزير ابنِ الوصيِّ عليهم ... وكان لهم في الناس خير شفيع
وآب الهدى حقّاً إلى مستقرّه ... بخير إيابٍ آبه ورجوع
إلى الهاشمي المهتدي المهتدى به ... فنحن له من سامع ومطيع

فلما أنشدهم، قال المختار لأصحابه:

– قد أثنى عليكم كما تسمعون، وقد أحسن الثناء عليكم، فأحسنوا له الجزاء.

ثم قام المختار وقال لأصحابه :

– لا تبرحوا حتى أخرج إليكم.

فقال عبدالله بن شدّاد الجشمي الذي شفع لابن همام :

– يا ابن همام إن لك عندي فرساً ومطرفاً.

وقال قيس بن طهفة النهدي:

– إن لك عندي فرساً ومطرفاً.

واستحيا أن يعطيه صاحبه شيئاً لا يعطي مثله فقال ليزيد بن أنس الأسدي: فما تعطيه أنت ؟

فقال يزيد : إن كان ثواب الله أراد بقوله فما عند الله خير له، وإن كان إنما اعترى بهذا القول أموالنا فوالله ما في أموالنا ما يسعه، وقد كانت بقيت من عطائي بقية فقوّيت بها إخواني.

فقال أحمر بن شميط مبادراً قبل أن يكلموه:

- يا ابن همام إن كنت أردت بهذا القول وجه الله فاطلب ثوابك من الله، وإن كنت إنما اعتريت به رضا الناس وطلب أموالهم فاكدم الجندل فوالله ليس من قال قولاً لغير الله وفي غير ذات الله بأهل أن ينحل ولا يوصل.

فقال ابن همام غاضباً:

- عضضت أير أبيك.

فرفع يزيد بن أنس السوط وقال:

- تقول هذا القول يا فاسق. وقال لابن شميط: اضربه بالسيف.

فرفع ابن شميط عليه السيف، ووثب وثب أصحابهما يتلفون على ابن همام فأخذ ابن الأشتر بيده وألقاه وراءه وقال:

- أنا جار له، لم تأتون إليه ما أرى؟ فوالله إنه لواصل الولاية راضٍ بما نحن عليه، حسن الثناء، فإن أنتم لم تكافئوه بحسن ثنائه فلا تشتموا عرضه ولا تسفكوا دمه.

ووثبت مذحج وحالت دونه. وقالوا:

- أجاره ابن الشتر لا والله لا يوصل إليه.

وسمع المختار لغطهم فخرج وأشار إليهم أن اجلسوا فجلسوا ، فقال لهم:

- إذا قيل لكم خيراً فاقبلوه، وإن قدرتم على مكافأته فافعلوا، وإن لم تقدروا على مكافأته فتنصلوا، واتقوا لسان الشاعر فإن شره حاضر وقوله فاجر وسعيه بائر وهو غداً بكم غادر. فقالوا :

- ألا نقتله؟

فقال :

- لا ، إنا قد أمنّاه وأجرناه وقد أجاره أخوكم إبراهيم بن الأشتر .

فجلس الناس. ثم إن إبراهيم بن الأشتر قام فانصرف إلى منزله فأعطاه ألفاً وفرساً ومطرفاً. فرجع بها وقال:

- والله لا جاورت هؤلاء أبداً.

وأقبلت هوازن واجتمعت في المسجد غضباً لابن همام ، فبعث إليهم المختار فسألهم أن يصفحوا عما اجتمعوا له ففعلوا. قال ابن همام يمدح ابن الأشتر:

أطـفـأ عـنـي نـار كلبـين ألّـبـا   علي الكلاب ذو الفعال ابن مالك

فتىً حين يلقى الخيل يفرق دونها   بطعن دِراكٍ أو بضرب مُواشِكِ

وقد غضبت لي من هوازن عصبة   طوالُ الذرا فيها عراض المبارك

إذا ابن شميط أو يزيد تعرضا   لها وقعا في مستحار المهالك

وثبتم علينا يا موالي طيىءٍ   مع ابن شميط شر ماشٍ وراتك

وأعظم ديّارٍ على الله فِرّية   وما مُفْتَرٍ طاغٍ كآخر ناسك

فيا عجبا من أحمسَ ابنةِ أحمسٍ   توثَّب حولي بالقنا والنيازك

كأنكم في العز قيسٌ وخثعمٌ   وهل أنتم إلا لئامُ المعارك

ولم يتركهم فقد هجاهم مرة أخرى في قصيدة قال فيها:

أضحت سليمى بعد طول غياب   وتجـرُّم ونفاد غرب شباب

قد أزمعت بصريمتي وتجنبي   وتهوّكٍ من ذاك في أعتاب

لما رأيت القصر أُغلق بابه   وتوكلت همدان بالأبواب

ورأيت أصحاب الدقيق كأنهم   حول البيوت ثعالب الأسراب

ورأيت أبواب الأزقة حولنا   دَرَبَت بكل هراوة وذُباب

أيقنت أن خيول شيّعة راشدٍ   لم يبق منها قَيْس أير ذباب

❊ ❊ ❊

العجير السلولي

لله درّه ما أفصحه

يبين الجارُ حين يبين عني ... ولم تأنس إلي كلابُ جاري
وتظعنُ جارتي من جنب بيتي ... ولم تُستَر بستر من جداري

العجير السلولي

هو أبو الفرزدق،العجير بن عبدالله بن عبيدة بن كعب.

وهو شاعر أموي مقل،عاش مع قومه بني سلول في بلدته بيشة[1].

يعتبر العجير من أفصح الشعراء في عصره ، فقد نسج شعره على منوال الفصاحة حتى أنه روي أن سليمان بن عبدالملك كان يطوف بالكعبة وكان العجير يطوف بها أيضاً وعليه بردان يساويان خمسين ديناراً، فانقطع شسع نعله فأخذها بيده ثم هتف بسليمان قائلاً:

ودلّيتُ دلوي في دلاءٍ كثيرة ... إليك فكان الماء ريّان معلما

فوقف سليمان ثم قال :

- للّه درّه ما أفصحه، واللّه ما قال: ريّان حتى قال: معلما، واللّه إنه يخيّل إلي أنه العجير، وما رأيته قط إلا عند عبدالملك.

فقيل له : هو العجير .

فأرسل إليه : أن صر إلينا إذا حللنا. فصار إليه فأمر له بثلاثين ألفاً وبصدقات قومه، فردها إلى قومه ووهبها لهم ، وقد اشتهر

١. بنو سلول قبيلة ما زالت موجودة بهذا الإسم وما زالت تعيش على ضفاف وادي بيشة، وهم أولاد مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن معد بن عدنان وينسبون إلى أمهم سلول بنت ذهل بن شيبان، وهم الآن من قبائل شهران ويعرف أحدهم بالشهراني ككثير من قبائل خثعم التي انضوت تحت هذا الاسم.

العجير بكرمه، كما يشتهر بنو سلول بل جميع قبائل بيشة بالكرم حتى أصبح سجية من سجاياهم.

أدب الأمراء :

كان العجير حكيماً بل إن شعره كان يعلم مكارم الأخلاق، بدليل أن الخاصة كانوا يحرصون على تعليم أبنائهم شعره وما شاكل شعره، فها هو عبدالملك بن مروان يقول لمؤدب ولده :

- إذا رويتهم فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي:

يبين الجارُ حين يبين عني	ولم تأنس إلي كلابُ جاري
وتظعنُ جارتي من جنب بيتي	ولم تُستَر بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حين آتي	عليها وهي واضعةُ الخِمارِ
كذلك هديُ آبائي قديماً	توارثه النِّجار عن النِّجارِ
فهديي هديُهم وهُمُ افتَلَوني	كما افتُلي العتيق من المهارِ

ولا غرابة أن يشترط عبدالملك أن يأمر بأن يؤدب ولده بمثل هذه الأبيات كما لا غرابة أن يقول العجير العربي الأصيل مثل هذه الأبيات وهو أولى بها من عنترة فقد جمع بين الإسلام والعروبة.

ومن حكم العجير:

قال الأصفهاني في أغانيه في الجزء الثالث في أخبار العجير: أخبرني حبيب ابن نصر المهلبي قال: حدثنا محمد بن سعد الكراني، قال: حدثنا العُمري عن العُتبي، قال: نظر أبي إلى فتىً من بني العباس يسحب مطرف خزٍّ عليه وهو سكران، وكان فتىً متهتكاً، فحرك رأسه مليّاً ثم قال: للّه درّ العجير السلولي حيث قال:

ومـا لبس الـنـاسُ مـن حُلة	جـديـدٍ ولا خـلـقـاً يُـرتـدى
كـمـثـل المــرُوءة لـلابـسـين	فدعني من المُطرَف المستدى[1]
فليس يغير فَضْلَ الكريم	خُلوقة أثـوابـه والـبِـلـى
ولـيـس يـغـير طـبـع اللئيم	مطارِف خز رقـاقُ السَّدى[2]
يـجـود الـكـريم على كل حالٍ	ويكبو اللئيم إذا ما جرى

الكرم في شعر العجير:

أثقل العجير بالديون لكثرة ما ينفق في سبيل كرمه المعتاد، جاء مرة يداعب زوجته ثم طلب منها مالاً ليقضي دينه الذي أثقل كاهله، لكن زوجته بدلاً من أن تعطيه ولعله أكثر الطلب من قبل، أبت على مالها وعاتبته لكثرة ما يكرم الناس ويعطيهم، فقال:

---

١. المطرف: رداء من خزٍّ مربع له أعلام./المستدى: يعني المنسوج.
٢. السدى من الثوب ما مُدّ منه.

تـقـولُ وقـد غـالـبتُـها أم خالد ... على مالها أُغرقتَ دَيْناً فأقصرِ

أبى القَصْرَ من يأوي إذا الليل جَنّني ... إلى ضَوءِ نـاري من فقيرٍ ومقترِ

أيـا مُـوقـدَيْ نـاري ارْفَعاها لعلها ... تُـشَـبُ لِمُـقـوٍ آخـرِ الليل مقفرِ[1]

أمـن راكـبٍ أمسى بظهر تَنُوفةٍ ... أُوَاريـكِ أم من جـاري المُنْتَظرِ

ولا قِـدر دون الجـار إلا ذميمةٌ ... وهـذا المقاسي ليلةً ذات منكرِ

تـكـاد الـصّـبا تَبْـتـزه مـن ثيابه ... على الرحل إلا من قميص ومئزرِ[2]

ومـاذا علينا أن يخالِس ضوءَها ... كـريمٌ نـثـاه شـاحـبُ المُتَحَسَّرِ[3]

فـيخبرنـا عـمـا قليل ولـو خلت ... لـه الـقِـدر لم نعجب ولم نتخبرِ

وفي قصيدة يخاطب زوجته قال:

سَلِي الطارق المعتَر يا أم مالكٍ ... إذا ما أتاني بين قِدْري ومَجزرِي[4]

أأبـسـط وجـهـي إنـه أول القِرى ... وأبـذل مـعـروفي لـه دون مُنكري

فلا قصر حتى يَفرج الغيثُ من أوى ... إلى جنب رَحْلي كل أشعث أغبرِ

أقي العرض بالمال التِّلادِ وما عسى ... أخوك إذا ما ضيَّع العرض يشتري[5]

يـؤدي إلى الـنّـيْـل قنيـانَ ماجدٍ ... كـريم ومـالـي سارحاً مـال مقتر[6]

إذا متُّ يوماً فاحضري أم خالد ... تراثك من طِـرْف وسيف وأقـدُر

وقد نسبت هذه الأبيات إلى عروة بن الورد أيضاً.

---

١. مقوٍ: يقال أقوى الرجل إذا فقد طعامه. المقوي هو الذي لازاد معه.
٢. الصَبا: الريح تهب بعد مطلع الثريا./تبتزه: تجرده.
٣. نثاه: النثا ما أخبرت به عن الرجل من حسن وسيء.
٤. الطارق : من يطرق الباب ليلاً./ والمعتر: الذي يطوف بالبيت./مجزري: مكان جزارة الإبل.
٥. التلاد: ما ورث من الآباء والأجداد من أي نوع من أنواع المال.
٦. النيل: ما نلته./قنيان: ما اقتني من مال.

قلت:المنادى في البيت الأول أم مالك وهو يختلف عنه في المنادى في البيت الأخير حيث نادى أم خالد والتي هي حقيقة زوجته فقد جاء ذكرها في غير هذه القصيدة، أما أم مالك فلم أجد لها ذكراً في قصائده الأخرى ،فلعل الراوي غيّر في البيت الأول من أم خالد إلى أم مالك، ولكني أرجح بأن البيت الأخير ليس من القصيدة لعدم ترابط معانيه معها وأن القصيدة فعلاً لعروة بن الورد. واللّه أعلم.

وقد قاده غريم له إلى أحد الأمراء يشكوه عدم وفائه دينه، فلما وقف العجير أمام الأمير قال:

أتيتـك أن البــاهلـي يسوقنــي　　　بـدين ومطلـوب الديون رقيـقُ

ثلاثتنا إن يسر اللّه: فائز بأجرٍ ومعطى حقه وعتيق ابن عمه الكريم:

كان للعجير ابن عم يقال له جابر بن زيد ، وكان كريماً مفضالاً لا يدع أضياف العجير حتى ينحر لهم الجزور ويبالغ في إكرامهم ، وكان يقال لزيد:

- ما لك لا تكثر إبلك ؟

فكان يقول :

- إن العجير لم يدعها أن تكثر.

وكان ينحرها ويطعمها للناس لأجل ما قاله فيه العجير. ثم سافر زيد فمات بمكان يقال له: (مَرّ)، وهو ماء لبني أسد .

فحزن العجير لموته حزناً شديداً ورثاه بقصيدة سارت بها الركبان، إلا أنها تعرضت لبعض الزيادة والنقصان والتحريف، وقد وردت هذه المرثية في روايتين في كتاب الأغاني واختلفت عنها في أشعار الحماسة وكتاب الأمالي، كما اختلف في نسبة البيت الأول والأخير.

وقد أورد الأصفهاني قصته مع هشام بن عبد الملك حينما قال له: أصدقت فيما قلته لابن عمك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلا أني قلت:

فتىً قدّ قدّ السيف لا متضائلٌ ... ولا رِهُلٌ لبّاتُه وبآدله[١]

جميلٌ إذا استقبلتَه من أمامه ... وإن هو ولَى أشعثُ الرأس جافله[٢]

طويلٌ سطي الساعدين عَذَوّرٌ ... على الحي حتى تستقل مراجله[٣]

ترى جازِرَيه يُرعَدان ونارُه ... عليها عداميلُ الهشيم وصامله[٤]

يجران ثنياً خيرُها عظم جاره ... على عينه لم تعدُ عنها مشاغله[٥]

تركنا أبا الأضيافِ في كل شتوة ... بمرٍّ ومِردى كلِ خصم يجادلُه[٦]

مقيماً سليناه دريسي مُفاضه ... وأبيض هنديّاً طوالاً حمائله[٧]

---

١. رهل : الرهل استرخاء اللحم./لبّاته: اللبة موضع النحر./بآدله: جمع بأدلة وهي اللحمة بين العنق والترقوة.

٢. جافله: أي كثير شعر الراس.

٣. سطيّ الساعدين: من السطو وهو البطش./العذوّر : السيىء الخلق. ولكن جعله عذوّراً لاختلاف طبعه عند قرى أضيافه فهو شديد الحركة حريص على تعجيل القرى، يغضب على الحي وتسوء أخلاقه عليهم حتى تنصب المراجل ويهيأ الطعام للضيوف فيعود إلى طبعه الأول.

٤. جازريه: مثنى جازر./يرعدان: من شدة حركتهما أو لارتعادهما خوفاً منه. أو من البرد./عداميل : حطب الأشجار الضخمة./صامله: يابس.

٥. ثنيا: الناقة ولدت مرتين. أو الناقة الثنية./خيرها عظم جاره: أي خير عظم فيها يعطيها بلحمه جاره.

٦. مرّ: واد لبني أسد مات عنده ابن عمه.

٧. دريسي مفاضة: الدرع التي حلقها واسعة./أبيض هنديّاً: السيف.

فأعجب به هشام وقال :

ـ والله نعم الرجل !!.

وفي رواية الحضرمي بن أبي العلاء قال فيها :

تركنا أبا الأضياف في ليلة الصبا بمرّ ومِردى كل خصم يجادله

وأُرعيه سمعي كلما ذكر الأسى وفي الصدر مني لوعة ما تزايله

وكنت أُعيرُ الدمع قبلك من بكى فأنت على من مات بعدك شاغله

أما الرواية التي جاءت في الأمالي فقد جاءت في ثمانية أبيات وفي موضع آخر ستة عشر بيتاً تحت عنوان : مرثية زينب بنت الطثرية في أخيها يزيد، وكلها من إنشاء أبي بكر الأول عن أبي حاتم، والثانية عن أحمد بن يحيى، إلا أنه ذكر أن في أبيات زينب أبياتاً تروى للعجير ولها، وقد أوهمنا أنها أبياته حين قال : وقد أملينا أبيات العجير، ثم أورد القصيدة، وتتشابه القصيدتان في خمسة أبيات هي الثالث والرابع والسادس والسابع والثامن في قصيدة العجير التي هي:

تركنا أبا الأضياف في ليلة الصبا بمرٍّ ومردى كلِ خصم يجادلُهُ[1]

تركنا فتى قد أيقن الجوع أنه إذا ما ثَوى في أرحُل القوم قاتلهُ

فتىً قدّ قد السيف لا متضائل ولارِهُــــلٌ لبــاتُـه وبـــآدلـهْ

إذا القوم أمُّــوّا بيتَه فهو عامد لأَحْسَـنِ ماظنّوا به فهو فاعلهْ

جــوادٌ بدنـيـاه بخيل بعرضه عَطوف على المولى قليلٌ غوائلهْ

فتى ليس لابن العم كالذئبِ إن رأى بصاحبه يومـاً دمـاً فهو آكلهْ

إذا جدَّ عند الجدِّ أرضاك جدُّه وذو باطل إن شئت أرضاك باطلهْ

يسرّك مظلوماً ويرضيك ظالماً وكـلُ الـذي حَملّتَهُ فهو حاملهْ

وجاء في معجم البلدان، حينما ذكر (مرّ) وذكر موت ابن عم العجير فيها هذه الأبيات :

تركنا أبا الأضياف في ليلة الدُّجى بمرٍ ومـردى كل خصم يناضِلهْ

ثـوى ما أقـامَ العيكتان وعريَت دقـاق الـهوادِي محدثات رواحلهْ

أخـو سـنوات يعلم الجـوع أنـه إذا ما تبيّا أرحـل القوم قاتلهْ[٢]

خُفاف كنصل المشرفي وقد عدا على الحي حتى تستقر مراجلهْ

فتـى جـــازِرَاه بـين عـيـدان نـاره عليها عداميل الهشيم وصاملهْ

يحـزانِ ثنياً خيرها عظم جاره بصير به لم تعدُ عنه مشاغلهْ

إذا القوم أمّـوّا بيتَه فهو عامد لأَحْسَـنِ ماظنّوا به فهو فاعلهْ

فتى ليس لابن العم كالذئبِ إن رأى بصاحبه يومـاً دمـاً فهو آكلهْ

لسانك خير وحده من قبيلةٍ　　وما عُد بُعداً في الفتى فهو فاعلهْ

سِوَى البُخْل والفحشاء واللؤم إنه　　أبت ذلكم أخلاقه وشمائلهْ

وله في رثاه قصيدة لم أعثر منها إلا على هذا البيت :

إن ابن عمّ لابن زيد وإنه　　لبلاّل أيدي جلّة الشّول بالدم

العجير عند عبدالملك:

وفد العجير مع قوم من بني سلول إلى عبدالملك بن مروان في الشام ، فلم يؤذن لهم بالدخول عليه لشغل عرض له، فلبثوا عند بابه شهراً ثم أذن لهم فلما وصل إليه العجير ومثل بين يديه قال:

ألا تلك أمّ الهبرِزِي تبيّنت　　عظامي ومنها ناحل وكسير[1]

وقالت تضاءلت الغداة ومن يكن　　فتىً قبل عام الماء فهو كبيرُ

فقلت لها إن العُجيرَ تَقلبَت　　به أبطن أبلينَه وظهُورُ

فمنهن إدلاجي على كلِ كوكبٍ　　له من عماني النجوم نظيرُ

وقرعي بكفي باب قلْك كأنما　　به القومُ يرجون الأذينَ نُسورُ[2]

ويوم تباري ألسُن القوم فيهم　　وللموتِ أرجاءٌ بهن تدورُ

لوان الجبال الصّمّ يسمعن وَقعها　　يعدنَ وقد بانت بهن فطورُ

فرحتُ جواداً والجوادُ مثابرٌ　　على جَرْيه ، ذو علةٍ ويسيرُ

---

١. أم الهبرِزِي : هي الحمى .
٢. الأذين : الحاجب.

فقال له الخليفة: يا عجير ما مدحت إلا نفسك، ولكنا نعطيك لطول مقامك. وأمر له بمائة من الإبل يعطاها من صدقات بني عامر، فكتب له بها.

العجير في المدينة:

اصطحب العجير شاعراً خزاعيّاً إلى مدينة رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم)، فقصد الخزاعي الحسن بن الحسن بن علي (رضي اللّه عنهم)، وقصد العجير رجلاً من بني عامر بن صعصعة-أبناء عم سلول - وقد نال سلطاناً، فأعطى الحسن الخزاعيَّ وكساه، ولم يعط العامري العجير شيئاً، فقال العجير:

يا ليتني يوم حزّمت القلوص له يممتها هاشميّاً غير ممذوقِ

محض النّجار من البيت الذي جعلت فيه النبوة يجري غير مسبوق

لا يمسك الخير إلا ريثَ يُسأله ولا يلاطم عند اللحم في السوقِ

هجاؤه قوماً من بني حنيفة:

هجا العجير قوماً من بني حنيفة وشتمهم ولعله قذفهم بما يوجب عليه حداً، فأقاموا عليه البينة واشتكوه عند الوالي نافع بن علقمة الكناني. فأمرهم بطلبه وإقامة الحد عليه إذا وجدوه، وليكن ذلك أمام ملأ من الناس حتى لا يدعي عليهم تجاوز الحد، فبلغ العجير

الخبر ، فتنكّر حتى صلى مع نافع في مسجده فلما خرج الوالي تعلق بثوبه ثم قال:

إليك سبقنا السوط والسجن تحتنا ... حيالٌ يسامين الظلال ولُقّحُ[١]

إلى نافع لا نرتجي ما أصابنا ... تحوم علينا السانحات وتبرح[٢]

فإن أك مجلوداً فكن أنت جالدي ... وإن أكُ مذبوحاً فكن أنت تذبح[٣]

فسأله عن المطر وكيف أثره فقال له:

يا نافع يا أكرم البريه ... يا نافع يا أكرم البريه

إنا لقينا سنة قسيّة ... إنا لقينا سنة قسيّة

فنبت البقل ولا رعيّهْ[٤]

فقال نافع : انج بنفسك وسوف أرضيهم.

رفيقه في السفر:

سافر العجير مع رفيق له يقال له: أصبح، وقد كان شاباً شديد المفاصل، وافي الشطاط، فلما أعياهما التعب أخذا قسطاً من الراحة حتى إذا سرى الكرى في مفاصلهما وأثقل النوم أجفانهما ، انتبه العجير فصاح بصاحبه بالرحيل، فارتكز الشاب ركزة الرمح، قال العجير فيه:

---

١. الممذوق المخلوط، أي إن نسبه خالص غير مخلوط.
٢. النّجار : الأصل والحسب.
٣. أي لا يشري اللحم من السوق لأضيافه ، وإنما يذبح لهم.
٤. يعني بأن المطر نزل لكن بعد أن هلكت الماشية فليس عندهم ما يرعى البقل.

ومنـخـرقٍ عـن مَنكِبيهِ قميصُـه	وعـن سـاعديه لـلأخِـلاء واصلِ
إذا طـال بالقوم المطا في تنوفةٍ	وطـولُ السرى ألفيته غيـر ناكلِ
دعوتُ وقد دَب الكَرى في عِظامِهِ	وفي رأسِه حتى جَرى في المفاصلِ
كما دَب صافي الخمر في مخ شاربٍ	يميل بعطفَيْهِ عـن اللـبِّ ذاهـلِ
فلبى لِيَثنيني بثني لسانه	ثقيلين مـن نـوم غَـلوب الغياطلِ
فقلت له قم فارتحل ليس ها هنا	سوى وقفةِ الساري مناخٌ لنازلِ
فقام اهتزاز الرمح يسرُو قميصه	ويحسِر عن عاري الذراعين ناحلِ

بنت عمه تختار غيره:

أحب العجير ابنة عمه ورغب الزواج بها فخطبها من أبيها فوعده خيراً وأرجأه، وبعد مدة خطبها رجلٌ ذو مال من بني عامر فخيرها أبوها بينه وبين العجير فاختارت العامري لماله، فقال العجير في ذلك:

ألمـا عـلـى دارٍ لـزيـنـبَ قـد أتـى	لها بِلوى ذى المَرخ صيفٌ ومَربعُ
وقـولا لـهـا قـد طـالما لم تَكَلمي	وراعـاك بالعين الـفُـؤاد المُـروّعُ
وقولا لها قـال العجيرُ وخصّني	اليـك، وإرسـال الخليلين ينفعُ
أأنت التي استودعتُك السّر فانتحى	لـي الخَـوْنَ مـرَّاحٌ من القوم أفرعُ
إذا امت كان الناس نصفين: شامتٌ	ومثنٍ بما قد كنت أسدي وأصنعُ

زوجته عثمة:

حج العجير بزوجة يقال لها عثمة، وبينما هو يسير في القافلة إذ لحظ زوجته ترمق شاباً من بعيد وتكلمه، فغضب وقال في ذلك:

أيـا ربّ لا تغفر لعَثمة ذنبها	وإن لم يعاقبها العجير فعاقبِ
أشـارت وعقد الله بيني وبينها	إلى راكـب من دونـه ألـف راكبِ
حـرامٌ عليك الحـج لا تقربنّه	إذا حـان حج المسلمات التوائبِ

حبه للعامرية :

أحب العجير امرأة من بني عامر يقال لها: جُمّل، وتعلق بها، فكان يتحدث إليها، من وقت لآخر، ورحلت مع قومها نواحي نصيبين (وهما جبلان) لطلب الرعي، فلحقهم العجير ونصب بيته حولهم وجاورهم ولم يخش أحداً، لكنهم رأوه ملازماً محادثتها فنهوه عنها وقالوا:

- قد رأينا أمرك فإما انقطعت عنها أو ارتحلت عنا، أو فأذن بحرب.

فرد عليهم بجرأة قائلاً:

– ما بيني وبينها ما ينكر، وإنما كنت أتحدث إليها كما يتحدث الرجل الكريم إلى المرأة الحرة الكريمة. أما الريبة فحاش للّه منها.

ورغم أنهم حذروه وهددوه إلا أنه لم يرتدع فعاد فحادثها، فأخذوا ماله وطردوه. فذهب إلى محمد بن مروان بن الحكم، وهو يومئذ يتولى الجزيرة لأخيه عبدالملك بن مروان ، فاشتكى إليه وخص منهم رجلاً من بني كلاب يقال له: ابن الحسام، وأنشده قوله:

عفا يافعٌ من أهله فَطلوبُ ... وأقْفَرَ لو كان الفؤاد يثوبُ

وقفتُ بها من بعد ما حل أهلها ... نصيبين والرَاقي الدموع طبيبُ[1]

وقد لاح معروفُ القتير وقد بدت ... بك اليوم من ريب الزمان ندوبُ[2]

وسالمتُ روحات المطي وأحمدت ... مناسُم منها تشتكى وصلوبُ[3]

وما القلب أم ما ذكر أُمِّ حبيبةٍ ... أريكةُ منها مسكن فهروبُ[4]

حَصَان الحُميا حرة حال دُونَها ... حَلَيلٌ لها شاكي السلاح غضوبُ[5]

شَموسٌ دُنوّ الفرقدين اقترابها ... لغيٍّ مقاريف الرجال سَبوب[6]

أحقاً عباد اللّه أن لسْت ناظراً ... إلى وجهها إلا عليّ رقيب

---

١. نصيبين : جبلان بالقرب من بيشة.
٢. لاح: ظهر من بعيد./معروف القتير: الشيب.
٣. سالمت روحات المطي: المطي الإبل، يعني سلمت من العناء ./أحمدت: أثنيت./منسم: جمع منسم وهو خف البعير.
٤. أريكة: جبل وقيل ماء لبني كعب./هروب: قرية.
٥. حصان : بفتح الحاء والصاد تعني عفيفة./ الحميا : الحوزة والجانب، وما زالت تعرف هناك بهذا المعنى.
٦. الشموس: الجامحة./المقاريف: المتهمون ./سبوب : من السب والشتم.

عدَتني العدا عنها بُعيد تساعف ... وما أرتجي منها إليّ قريب

لقد أحسنت جُمْلٌ لوَ ان تبيعها ... إذا ما أرادت أن تُثيب يثيب

تصدين حتى يذهب اليأس بالمنى ... وحتى تكاد النفس عنك تطيب

وأنت المنى لو كنتِ تستأنفيننا ... بخير ولكن مُعْتفاك جديب[1]

أيؤكل مالي وابن عمي شاهدٌ ... ولم يقض لي وابن الحسام قريب

فتىً محضُ أطرافِ العروق مساورٌ ... جبال الغلا طلق اليدين وهوب[2]

فأمر محمد بن مروان بإحضار ابن الحسام الكلابي فأحضر فحبسه حتى ردّ مال العجير، وأمر العجير بالانصراف إلى حيّه وترك النزول على المرأة أو في قومها.

وقال العجير في ذلك أيضاً :

هاتيك جُمْلٌ بأرض لا يقرّ بها ... إلا هِبَلٌّ من العِيدي مُعْتَقِدُ[3]

ودونها معشرٌ خزرٌ عيونهم ... لو تخمُد النار من حرٍّ لما خمدوا[4]

عدّوا علينا ذنوباً في زيارتها ... ليحجبوها وفي أخلاقهم نكَد

وحال من دونها شكسٌ خلائقه ... كأنه نمر في جلده الرُّبَد[5]

فليس إلا عويلٌ كلما ذكرت ... أو زفرةٌ طالما أنّت بها الكِبد

وتيّمتني جُمْل فاستمرّ بها ... شحطٌ من الدار لا أمٌّ ولا صددُ[6]

---

١. تستأنفيننا: تجددين العهد إلينا./المعتفى: الموضع الذي يطلب فيه العفو والصفح.
٢. محض أطراف العروق: خالص الأصول طاهرها.
٣. هبل : الطويل الضخم./ عيدي : يقال نجائب عيدية منسوبة إلى فحل معروف./المعتقد: الصبور.
٤. خزر : جمع أخزر وهو ضيق العينين.
٥. شكس : صعب./الرّبد: الغبرة.
٦. الشحط: البعد./أمّ: قصد./صددٌ: قُرب.

قالوا غداة استقلّت: ما لمقلته ... أمِن قذى هملت أم عارها رمدُ؟
فقلت: لا بل غدَت سلمى لطيّتها ... فليتهم مثل وجدي بكرة وجدوا[1]
إن كان وصلكِ أبلى الدهر جِدّته ... وكلُّ شيءٍ جديدٍ هالك نفد
فقد أُراني ووجدي إذ تفارقني ... يوماً كوجد عجوزٍ درعها قدد[2]
تبكي على بطل حُمّت منيته ... وكان واتر أعداء به ابتردوا[3]
وقد خلا زمن لو تصرمين له ... وصْلي لأيقنت أني ميّت كمَد
أزمان تعجبني جُمْلٌ وأكتمه ... جُمْلاً حياء وما وجدٌ كما أجد
فقد برئت على أني إذا ذكرت ... ينهلُّ دمعي وتحيا غصةٌ تلد[4]
من عهد سلمى التي هام الفؤاد بها ... أزمانَ أزمانَ سلمى طفلةٌ رؤُد[5]
قد قلت للكاشح المبدي عداوته ... قد طالما كان منك الغِش والحسد
ألا تبيِّن لي لا زلت تُبغضني ... حتام أنت إذا ما ساعفت ضَمِد[6]

زواج ابنته من مولى:

سافر العجير إلى الشام، ووكّل بابنته خالها ليزوجها إذا خطبت، ولكنه أوصاه أن لا يزوجها إلا كفؤ، وفي غيبته تقدم لها مولىً لبني هلال كان غنيا، فطمع الخال وأمها في الرجل لما سيجدونه منه،

١. طيّتها: جهتها التي تنوي الذهاب إليها./وجدوا: من الوجد أي الحب الشديد .
٢. قدد: جمع قدة وهي القطيعة.
٣. حمت : نزلت./واتر الأعداء: هو الذي يصيب الأعداء./ابتردوا : أي برّدوا أجسادهم.
٤. الغصة: ما يمسك بالحلق من الحزن والغيظ.
٥. رؤد: شابة حسنة.
٦. ضمد: حقد عليه.

لكن البنت لاذت بأخيها من أبيها الفرزدق و بابن عمها يقال له: القيل، وببعض قومها فمنعوا تزويجها له، لكن ابن عمها ساعد خالها وأمها على تزويجها ومنع منها أخاها. فلما جاء العجير غضب غضباً شديداً من خالها وأمها ومن ابن أخيه القيل ، وفسخ نكاحها ، وقال في ذلك:

ألا هل لبعجان الهلاليِّ زاجرٌ ... وبعجان مأدومُ الطعام سمين

أليس أمير المؤمنين ابن عمها ... وبالحِنوِ آسادٌ لها وعرين[1]

وعاذت بِحَقوَيّ عامر وابن عامر ... ولله قد بتت عليّ يمين[2]

تنالونها أو يخضب الأرض منكم ... دمٌ خرّ عنه حاجب وجبين

وقال يمتدح ابنه الفرزدق :

إذا ما أتيت الخاضبات أكفُّها ... عليهن مقصورُ الحجال المروّق[3]

فلا تدعونّ القَيل إلا لمشربٍ ... رواء ولكن الشجاع الفرزدق[4]

هو ابن لبيضاء الجبين نجيبةٍ ... تلقّت بطُهر لم يجىء وهو أحمق[5]

تداعى إليه أكرمُ الحيّ نسوةً ... أطفن بكسرى بيتها حين تُطلَق

فجاءت بعُربان اليدين كأنه ... من الطير بازٍ ينفض الطل أزرق

١. الحنو: موقع قرب ذي قار قرب الكوفة.
٢. تقول العرب : عاذ بحقوه إذا عاذ به ، والحقو مكان عقد الإزار.
٣. المروّق: أي وضع له رواق وهو الستر دون السقف أو مقدمة البيت .
٤. القيل: اللبن يشرب في القائلة.
٥. تلقّت : أي حبلت به.

وقال يخاطب ابنه الفرزدق أيضاً:

ولقد وضعتك غير مترّكٍ ... من جابر في بيتها الضخم

واخترت أمك من نسائهم ... وأبوك كل عذوّر شهم

فلئن كذبت المنح من مائة ... فلتقبلن بسائغٍ وفم

إن الندى والفضل غايتنا ... ونجاتنا وطريق من يحمي

المعمل :

المعمل مكان في بيشة كان يسمى مطلوباً لكثرة ما كان يطلبه أهل بيشة ويتنازعون عليه، وقد ذكره الحموي في معجمه فقال: بأنه قرية من أعمال بيشة. وقد اندثر هذان الاسمان ولم نعثر على ما يدلنا على أنه إحدى قرى بيشة المعروفة، إذ إن قرى بيشة كانت إلى عهد قريب من أخصب الديار في تلك الأنحاء.

حتى أن الأوائل لا يعرفون القصة فضلاً عن المكان.

وقد كان هذا الموضع محل نزاع بين خثعم وبني سلول في العهد الأموي وربما قبله، وكان كل فريق من هاتين القبيلتين يرى بأنه أولى بهذا المكان من غيره، فكانت سلول تغرس فسيل النخل فتأتي خثعم فتنزعه وتهدم الآبار التي حفروها. وهكذا تفعل سلول في فسيل خثعم.

وظهر في الأفق أن هناك فتنة تظهر قرنيها قد تحصد أنفساً وتورث شرّاً، فهرع الشاعر العجير السلولي إلى الخليفة هشام بن عبدالملك وقيل بل عبدالملك ابن مروان[1] نفسه في الشام وأخذ معه جراباً فيه طين وماء من مطلوب، ولما وصل إلى الخليفة وصف له المكان وامتدحه عنده وأراه الطين والماء العذب.

وأخبره بوادي بيشة وعظمه وما يصب فيه من أودية وما عليه من النخيل، وأنه يحتمل نقل عشرة آلاف فسيلة في اليوم الواحد.

فسرّ الخليفة به ، ثم أمر أمير مكة أن يشتري مائتي عبد أسود[2] مع زوجاتهم فيرسلهم إلى مطلوب ، ويحمل إليهم الفسيل.

عاد العجير وقد انتفخ صدره فرحاً وزهواً بما صنع ، وارتاحت نفسه واطمأن على قومه من الفتنة والغبن، فقال:

لا نوم إلا غرار العين ساهرة ... إن لم أروّع بغيظ أهل مطلوبِ

إن تشتموني فقد بدلت أيكتكم ... ذرق الدجاج وخفّان اليعاقيبِ

وكنت أخبرتكم أن سوف يعمرها ... بنو أمية وعداً غير مكذوب

---

١. معجم البلدان ، مادة مطلوب ومادة معمل.

٢. يكثر نسل هؤلاء في بيشة حتى الآن وقد اندمجوا في قبائلها وصاروا منهم، وهم من خيار الناس كرماً وشهامة واعتزازا بالنفس ولا يختلفون عن بقية قبائلهم من حيث التزامهم بالعادات والتقاليد المحمودة وقد عرفتهم عن قرب.

فغضبت خثعم وأرسلوا رجلاً منهم يقال له : أمية. إلى الخليفة فلما دخل عليه قال:

- يا أمير المؤمنين، إنما أراد العجير أن يصل إليك، وهو شويعر سآل وحربه عليك. وتكلم بكلام حتى أقنعه.

فكتب الخليفة إلى عامله يأمره بأن يشدّ يدي العجير إلى عنقه ثم يبعثه في الحديد. فبلغ العجير الخبر فركب في الليل وسار متخفياً حتى وصل إلى الخليفة فلما مثل بين يديه قال:

- يا أمير المؤمنين، أنا عندك فاحتبسني وابعث من يبصر الأرضين والضياع، فإن لم يكن الأمر على ما أخبرتك فلك دمي حلّ وبلّ.

ففعل الخليفة لكن البلاد أعجبته فأمضى أمره وصار مطلوب من خيار ضياع بني أمية ، ولما رأى الناس العبيد يعملون في مطلوب قالوا :

- إن مطلوباً يعمل فيه عمل.

فسمي المعمل، وخسرت سلول وخثعم وظفر بها بنو أمية ولو أنهم اتفقوا واقتسموه لظفروا بها ولما نظر إليها بنو أمية.

* * *

عبدالله بن الدمينة

شاعر الحب والكرم

ألا يا صبا نجد متى هِجت من نجد فقد زادني مَسْراكَ وجداً على وجدِ

أإنْ هتفت ورقاء في رونَقِ الضحى على فننٍ غض النبات من الرندِ

عبدالله بن الدمينة الأكلبي

هو عبدالله بن عبيد الله من بني عامر بن تيم الله بن مبشر بن أكلب بن ربيعة. يكنى بأبي السّرى.

شاعر أموي لم أعثر على تاريخ ولادته أو وفاته، عاش في بيشة الفيحاء، ولم نجد في شعره مديحاً لأمراء أو ولاة مما يدل على أنه التزم دياره ولم يطرق أبواب الخلفاء كغيره من الشعراء في ذلك العصر.

جاءنا شعر يدل على شاعر متفنن متأنق، شعره دقيق السلك شريف المعاني يجول فيه رونق الحسن رقيق التشبيب. ليس فيه تعسف ولا تكلف. صبه صاحبه في قوالب غزلية فاتنة تداعب معانيه أشجان العشاق.

والذي يعرف بيشة قبل سنوات يعرف سر كثرة الشعر واحتدام الشعراء.

فبيشة كانت سرّاً من أسرار الجمال الذي أودعه الله في الصحراء، اخترق واديها المهيب الفيافي فغرس فيها الحياة الخضراء التي حركت أشجان البدوي صاحب الرصافة.

---

١. أكلب قبيلة ما زالت معروفة بهذا الإسم تقطن بيشة وما حولها .
قيل أكلب هو ابن ربيعة ابن عفرس بن حلف بن أفتل بن أنمار، أي إنه من خثعم وأخ لشهران، وقيل بل هو ابن نزار بن معد بن عدنان وإنما دخل في خثعم .

٢. بيشة هي بلدة تقع في الجزء الجنوبي من المملكة العربية السعودية في السهول الشرقية لجبال الحجاز تبعد شمالاً عن مدينة أبها بحوالي مائتين وخمسين كيلاً، وتعتبر الآن من المدن الهامة في ذلك الجزء من الجزيرة. وقد كانت ملتقى الطرق القادمة من اليمن وعسير والحجاز ونجد، لكن الطرق الحديثة التي عبدت في الحجاز وغيرها صرفت عنها تلك الطرق وخاصة المتجهة إلى مكة ونجد. اشتهرت في العصر الجاهلي بأسدها كما اشتهرت حتى الآن بكثرة زراعتها للنخيل وبواديها الكبير . كان يسكنها خثعم بجميع قبائلها وبنو سلول غيرهم أما الآن فيسكنها بعض قبائل شهران وأكلب وبنو سلول ومعاوية وبقية المحلف (انظر كتابنا قبيلة شهران بين الماضي والحاضر ص ١٠٩)

كانت بيشة مهوى أفئدة العشاق الأدبي كما كانت مهوى أفئدة طلاب الرزق والتمر.

وفيها عاش ابن الدمينة ليشاء الله أن يسطر لنا ما نقله الرواة من بديع ما حركت في اشجانه .

لا تلمني يا صاحبي فأنا أحب بيشة لأنني أعرف بيشة ، لكنني أفقد فيها ثروات شعرية نثرتها الريح في فيافي المتن وعلى سفوح جبال الحجاز إذ لم تجد على مدى القرون الخوالي من يروي لنا روائع شعر بني سلول وأكلب وبقية قبائل خثعم من شهران وغيرهم.

في قليل من شعر ابن الدمينة مدح قومه لكنه أكثر من الغزل فعرف به.

من لطيف شعره ما رواه الجاحظ في أغانيه حيث ذكر أن حماد بن سلمة قال : حدثني أبي قال : كان العباس بن الأحنف إذا سمع شيئاً يستحسنه أطرفني به فجاء يوماً فوقف بين البابين وأنشد لابن الدمينة :

ألا يا صبا نجد متى هِجت من نجد	فقد زادني مَسْراكَ وجداً على وجدِ
أإنْ هتفت ورقاء في رونَقِ الضحى	على فننٍ غض النبات من الرندِ

بكيت كما يبكي الحزين صبابةً وذبت من الشوق المُبرِح والصدِ

بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن جزوعاً، وأبديت الذي لم تكن تبدي

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمَل وأن النّأي يشفِي من الوَجْدِ

بِكُلٍّ تداوينا فلم يُشف ما بنا على أن قُرْبَ الدارِ خيرٌ من البُعدِ

ثم ترنح وترجح أخرى ثم قال: أأنطح العمود برأسي من حسن هذا؟ فقلت : لا . ارفق بنفسك.

وقد زيد على تلك الأبيات بيت سابع هو :

ولكن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من نهواه ليس بذي ودّ

الفخر في شعره:

افتخر ابن الدمينة بقومه خثعم[1] فجعلهم أكرم الناس وأنجاهم للخائفين وأوفاهم للذمم وأرفعهم للضيم وأسرعهم غوثاً. يقول فيهم:

وخثعم قومي ما من الناس معشر أعم ندى منهم. وأنجى الخائف

وأفدى لمغلولٍ، وأوفى بذمةٍ وأوقى لضيم عن نقيل محالف

وأجبر للمولى إذا رق عظمه وأسرع غوثاً يوم هيجاً لهاتف

إذا حاربوا شدوا على ثروة العدى جهاراً ولم يدفعوا طلابه بالحسائف

١. خثعم هي قبيلة قديمة جدّاً كان هذا الاسم يجمع قبائل كبيرة أشهرها شهران وناهس وكود والتي انضمت تحت اسم واحد هو شهران وأكلب، وخثعم هو ابن أفتل بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

أما فخذه الأدنى الهزر[1] فقد خصهم بقصيدة امتدحهم فيها وجعل وسامهم الشجاعة فقال:

شفى النفس أسياف بأيمان فتية　　　من الهزر جارت في عقيل ذكورها

مجـربـــة الأيـام قـد أكثـروا بهـا　　　قراع الأعـادي فهي تلـم صدورهـا

الغزل في شعر ابن الدمينة:

ورد في شعر ابن الدمينة اسما عشيقتين له هما أميمة وليلى، لكن الرجل كما يبدو من شعره لم يقتصر عليهما ففي بقية شعره ما يدل على أنه يحمل بين جنبيه قلباً يرفرف كلما هبت نسائم الجمال أمامه، فلم يكن يبخل على الناس بتوشيحات ذلك القلب المتيم الذي كان يكتوي بلوعات العاشقين بين حين وآخر.

أميمة:

أحب ابن الدمينة فتاة من قومه اسمها أميمة، وكانت شاعرة مثله، فلما أحبته وهامت به أخذ يكويها بحرارة الشوق وألم الفراق، لكنه لم يترك ذلك الحب يموت، فقد كان يغذيه بزيارات توقد شوقها وحبها له، وذات مرة تقابلا فعاتبته وعاتبها، قالت:

١. الهزر بن أكلب هو بطن كبير من أكلب مازال يعرف حتى الآن.

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ... وأشمتّ بي من كان فيك يلوم

وأبرزتني للناس ثم تركتني ... لهم غرضاً أُرقى وأنت سليم

فلو أن قولاً يكلمُ الجسم قد بدا ... بجسمي من قول الوشاة كُلوم

فأجابها ليزيد من جواها:

وأنت التي قطَّعتِ قلبي حرارة ... ومزقتِ قَرْح القلب وهو كليم

وأنت التي كلفتني دَلجَ السُّرى ... وجُون القطا بالجهلتين جثومُ[1]

وأنت التي أحفظتِ قومي فكلهم ... بعيد الرضا داني الصدود كظيم

وكان ابن الدمينة يتوقع بأن الوشاة سيتوقفون يوماً عن نقل الكلام وكأنه يعيش في بلاد الفضيلة الضائعة، وربما يتحمل قسوة الوشاة لولا أنهم تدخلوا بها بينه وبين أميمة، فجازاه الله بما كان يصنع بأميمة المسكينة حين ألهب فؤاده عليها فقال في قصيدة منها:

أقمت على زمّان يوماً وليلة ... لأنظر ما واشي أميمة صانع[2]

فقصرك مني كل عام قصيدة ... تخب بها خوص المطي النزائع[3]

ومنها:

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ... لي الليل شاقتني إليك المضاجع

لقد نبتت في القلب منك محبةٌ ... كما نبتت في الراحتين الأصابع

١. جون القطا: ضرب من القطا وهو الطائر المعروف أسود البطن والجناحين. جثوم: من جثم جثوماً لزم مكانه والتصق بالأرض.
٢. زمّان: موضع.
٣. تخب هنا تركض. المطي النزائع: الإبل التي انتزعت من أيدي الغرباء أو التي جلبت إلى غير بلادها.

وفي مخاطبته لها يقول في قصيدة رائعة:

قفي يا أميم نشكو الذي بنا ... وفرط الهوى ثم افعلي ما بدا لك

سلي البانة الغناء بالأجرع الذي ... به البان هل حييت أطلال دارك

وهل قمت في أطلالهن عشيةً ... مقام أخي البأساء واخترت ذلك

ليهنئك إمساكي بكفي على الحشا ... ورقراق عيني رهبةً من زِيالَكِ

ولو قلتِ طَأْ في النار أعلم أنه ... هوى لك أو مُدْنٍ لنا من نوالك

لقدّمتُ رجلي نحوها فوطئْتُها ... هدى منك لي أو ضَلّةً من ضَلالك

محبوبته ليلى على غير ريبة :

ويخبرنا شعر ابن الدمينة أن قلب الشاعر اللعوب مال إلى معشوقة جديدة اسمها ليلى وليت شعري ما سر اسم ليلى في لغات العاشقين، ليلى هذا الاسم الذي سطره الأدب العربي أسطورة من أساطير الغرام الذي أغدق على فيافي الجزيرة سلسبيل الحب العذري.

يقول ابن الدمينة في ليلاه:

يقول ابن الدمينة في ليلاه: ... وأنت بتلماحٍ من الطّرف زائرُه[2]

ألا حُب بالبيت الذي أنت هاجره ... وأحسنُ في عيني من البيت عامرُه

فإنك من بيتٍ لعينيَ مُعجبٌ ... وفيك المُنى لولا عدو أحاذرُه

١. الأجرع : موضع.
٢. تلماح : موضع . والطرف: موضع

أصـدُّ حيـاءً أن يلجَّ بـيَ الهوى ... عليك لمـا بـالَيـت أنـك خابرُه

وكـم لائـمٍ لـولا نفـاسـةُ حبِّها ... ومـا خيُر حبٍّ لا تعفُّ سرائرُه

أُحبِّك يا ليلى على غير ريبةٍ ... فــــإن مـــتُّ أضــحــى

وقد مات قبلي أول الحبِّ فانقضى ... الحـــبُّ قـــد مـــات آخـــره

فلما تناهى الحب في القلب وارداً ... أقام وأعيَت بعد ذاك مصادره

وقد كان قلبي في حجاب يكنُّه ... وحبُّك من دون الحجاب يساتره

فماذا الذي يشفي من الحب بعدما ... تشرّبه بطنُ الفـؤاد وظاهره

يحب هبوط الواديين:

ويحن إلى محبوبته وواديها ولا نعرف أهي ليلى أم أميمة أم ثالثة لا نعرفها، لكنه شكا لنا معاناته التي يكتوي بها في كل زيارة يريد أن يزورها فيه، لما يجد من المراقبة الشديدة المفروضة على محبوبته، وليت شعري كيف يعجب لأن يمنع من إلفه ويؤنب من يرتاب في أن تحن النجيبة إلى النجيب.

يقول في قصيدته[1]:

ألا لا أرى وادي المـيـاه يثيب ... ولا النفس عن وادي المياه تطيب

أحـب هـبـوط الـواديـين وإنني ... لمستهتر بـالـواديـين غريبُ

١. هذه القصيدة ذكرها أبو علي القالي في أماليه (١/٢٠٣ ؟؟) لابن الدمينة بينما نبه عليها البكري في التنبيه (ص٦٣) على أنها لمالك بن الصمصامة ، كما ذكرت أبيات لمالك في الأغاني ١٩ / ٨٣).

أحق عباد الله أن لست وارداً ... ولا صـــادراً إلا علـي رقيـبُ

ولا زائـراً وحدي ولا في جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريبُ

وهـل ريبـة في أن تحـنّ نجيبةٌ ... إلى إلفها أو أن يحـنّ نجيبُ

وإن الكثيب الفرْد من جانب الحِمى ... إليّ وإن لم آتـــه لحبيبُ

وفي وادي المياه قال أيضاً[1]:

ألا يا حمى وادي المياه قتلتني ... أباحك لي قبل الممات مُبيحُ

رأيتُك غضّ النَبْت مرتطب الثرى ... يحوطك شُجّاعٌ عليك شحيحُ

كأن مـدُوف الزعفران بجنبه ... دمٌ من ظباء الواديين ذبيحُ

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح

أبى الناس ويل الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح؟!

ووادي المياه هذا قال عنه ياقوت الحموي[2]: وذكره الحفصي في نواحي اليمامة، قال: وأول ما يسقي جلاجل وادي المياه. ثم ذكر الأبيات السابقة منسوبة إلى ابن الدمينة يعرّض ببنت عم له بعد إيراده بيتين لراعٍ.

والذي أعتقده إذا صحت رواية هذه الأبيات وما قبلها لابن الدمينة أن هناك وادياً غرب بيشة كان يسمى بهذا الاسم حيث

١. الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ، ص ٣٧٥ .
٢. شهاب الدين الحموي، معجم البلدان ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، مادة وادي المياه.

تكثر الأودية ذات الغيل في تلك النواحي. وتحتاج منا إلى مزيد من البحث. لكن تبقى علامة استفهام أمام الزعفران الذي كان بجانبيه وهل كان ينبت في تلك النواحي من بلاد العرب ؟

يلاحق محبوبته في القافلة :

بينما كانت محبوبة ابن الدمينة في ظعنها وهو يسير مع قافلتها كان يتحين الفرص لعلها تمنحه سلاماً، وربما تسرق له وصالاً في غفلة من الرقيب . لكن أسداً غيوراً من أهلها قد صرم عليه آماله، وجعل رحلته عناء يحمله بين أضلعه في رحلته الشاقة تلك . لكنه في غفلة تلقى سهماً ثاقباً من عينيها كاد يقتله، فقال في ذلك:

ولما لحقنا بالحمول ودونها	خميص الحشا توهي القميص عواتقه[1]
قليل قذى العينين يعلم أنه	هو الموت إن لم تُلق عنا بوائقه
عرضنا فسلمنا فسلّم كارهاً	علينا وتبريح من الغيظ خانقه
فسايرته مقدار ميل وليتني	بكرهي له ما دام حيّاً أرافقه
فلما رأت أن لا وصال وأنه	مدى الصرم مضروباً عليه سرادقه
رمتني بطرفٍ لو كميّاً رمت به	لبُلَّ نجيعاً نحره وبنائقه[2]
ولمحٌ بعينيها كأن وميضه	وميضُ حَيَاً تُهْدى لِنجد شقائقُه

١. خميص الحشا: ضامر البطن.
٢. النجيع : هو الدم وقيل دم الجوف خاصة. والبنائق جمع بنيقة : وهي طوق الثوب الذي يضم النحر وما حوله. يقول: لبُل النحر وما حوله من الثوب بالدم.

أمنية :

اسمع إلى أمنية ابن الدمينة وكيف يتخيل نفسه مع محبوبته :

يا ليتنا فردا وحشية أبداً نرعى المِتان ونَخْفى في نواحيها

أو ليت كُدْر القَطا حلّقْن بي وبها دون السماءِ فعشنا في خوافيها

أكثرتُ من ليتنا لو كان ينفعُنا ومن مُنى النفس لو تعطى أمانيها

لا تعرف الاعتذار :

يصور محبوبته بريئة إلى حد السذاجة حتى أن العي يصيبها فلا تعرف كيف تقدم عذراً يبرئها يقول في ذلك:

بنفسي وأهلي من إذا عرَّضوا له ببعضِ الأذى لم يَدْرِ كيف يجيب

ولم يعتذرْ عذر البَريِّ ولم تَزَلْ به ضَعْفةٌ حتى يُقال مُرِيْبُ

تَلجِّين حتى يُزْري الهجرُ بالهوى وحتى تَكادُ النَّفْس عنكِ تطيبُ

وإنِّي لأسْتحييك حتى كأنمّا عليَّ بظهْر الغيبِ مِنكِ رقيبُ

وقال يخاطب محبوبته :

أطعتِ الآمريكِ بقطْعِ حَبلي مُريهم في أحِبَّتهم بِذاكِ

فان هُم طَاوَعوكِ فطاوعيهم وإن عاصوكِ فاعصي من عصاكِ

أما والراقصات بكل فجٍّ ومن صَلى بنعمانِ الأراكِ

لقد أضمرتُ حبك في فؤادي وما أضمرتُ حبّاً من سواكِ

وما أضمرتُ حبّاً من سواكِ .... هل صدق ابن الدمينة ؟! وهل قصة حياته المليئة بالمغامرات الغرامية تجعلها تصدقه؟! ربما .

زوجته حمّاء ونهايته :

قيل من طرق باب الناس طرقوا بابه وروي عنه صلى اللّه عليه وسلم (من زنى زني به ولو في جدار بيته) وهكذا كان بالنسبة لابن الدمينة، ولو أنه لم ينقل إلينا أنه طرق أبواب الزوجات، لكن الجزاء من جنس العمل، فقد اتهم شاعر شاب من بني سلول يقال له: (مزاحم بن عمرو) بعشقه لامرأة ابن الدمينة والمسماة (حمّاء)، وقيل بأنه كان يأتيها ويتحدث معها ، وقد تهدده ابن الدمينة وأغلظ عليه ، لكن الشاعر أهلكه حمقه ولسانه فقال الأبيات التالية:

يا بنَ الدُّمَيْنة والأخبارُ يرفعها ... وخدَ النجائِبِ والمحقوُرُ يخفيها[1]

يا بن الدُّمَيْنة إن تغضب لما فعلت ... فطال خِزيك أو تغضب مواليِها

أو تبغضوني فكم من طعنةٍ نَفَذٍ ... يغذوخلال اختلاج الجَوفِ غاذيّها[2]

جاهدتُ فيها لكم إني لكم أبداً ... أبغي معايبكم عمداً فآتيها

فذاك عندِي لكم حتى تُغيبني ... غبراءُ مظلمةٌ هاوٍ نواحيها

أغشى نساء بني تَيمٍ إذا هجَعت ... عني العيون ولا أبغي مَقَارِيها[3]

---

١. وخد : نوع من سير الإبل وهو سير سريع والنجائب هنا الإبل القوية السريعة . والمحقور: المحتقر.
٢. غذّ الجرح إذا سال ما فيه من قيح وصديد.
٣. مقاريها : من القِرى أي لا أطلب ضيافتهم.

كم كَاعبٍ من بني تَيمْ قعدتُ لها   وعانسٍ حين ذاق النَّومَ حاميها
كِقعدة الأعسر العُلْفُوف منتحِياً   متينةً من مُتون النَّبْلِ ينحيها[1]

* * *

ماذا ترى ابن عُبَيْد الله في امرأةٍ   ليست بِمُحْصنةٍ عذراء حاويها
أيـام أنـت طـريـدٌ لاتُـقـارِبُـهـا   وصادَف القوس في الغِراتِ باريها
تـرى عـجـوزَ بـنـي تَـيـمْ ملفَّعةً   شُمطاً عوارِضُها رُبْداً دواهيها

ولعلك رأيت نقاطاً مكان أبيات محذوفة لم أذكر فيها أربعة أبيات استحييت من ذكرها، فقد ذكر الشاعر فيها كية في موضع عورة المرأة وهو وصف أتورع ويتورع كل ذي دين وخلق من ذكره.

ومن هنا يعرف بأن الشاعر تعدى الخطوط الحمراء التي تهدر فيها الدماء عند العرب، لقد تعدى كل آداب الرجولة التي يعتز بها الشعراء الفحول. فقد ذكر بأنه يتتبع عورات الرجال، ويصف خياناته والركض خلف الخائنات من النساء اللاتي يغيب عنهن رجالهن. فأي فخر لهذا الشاعر الدنيء.

لا يعذر أبداً إن كان يريد إغاظة ابن الدمينة لتعرضه لعورات المسلمات سواء صدق أو كذب ولكن لله در الشافعي حين قال:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقائه الأقران

من أبيات مزاحم أدرك ابن الدمينة حقيقة وصاله مع زوجته وأن وصفه الخليع لما فيها من صفات خفية يؤكد له رؤيته لها وخاصة تلك الكية المستترة، فذهب ابن الدمينة بعدما رويت له القصيدة إلى حمّاء مغاضباً وقال لها :

- قد بلغك ما قاله هذا الرجل فيك.

قالت :

- واللّه ما رأى ذلك مني قط .

فقال:

- فمن أين له هذه العلامات ؟

قالت :

- وصفهن له النساء.

قال :

- هيهات واللّه أن يكون كذلك.

ثم أمسك مدة حتى ظن أن مزاحماً قد نسي القصة، فأعاد السؤال على حماء، فأعادت الحلف أن ذلك مما وصفه النساء . فقال لها :

- واللّه لئن لم تمكنيني منه لأقتلنك.

فعلمت أنه سيفعل ذلك. فبعثت إلى مزاحم رسولاً تواعده فجاءها، وكان ابن الدمينة قد كمن له مع رجل آخر، فلما وصل مزاحم كلمها وهي مكانها لم ترد عليه، فقال لها :

- يا حماء ما هذا الجفاء الليلة ؟

فقالت له بصوت ضعيف:

- دخل .

فلما دخل وأراد أن يضع يده عليها وقعت في يد ابن الدمينة الذي وثب هو عليه هو وصاحبه ، وكان قد جعل حصى في ثوب فضرب بها كبده حتى مات ثم أخرجه فطرحه ميتاً في العرصة.

ثم التفت إلى زوجته فطرح على وجهها قطيفة ثم قعد عليها حتى ماتت ثم قال:

إذا قعدت على عرنين جارية فوق القطيفة فادعوا لي بحفّار

فلما رأته ابنته منها وهي صغيرة صرخت من الخوف فقابل خوفها بغضبه الذي ما زال يعصف به ولعله كان يظنها ابنة لمزاحم أو غيره فضرب بها الأرض فقتلها (والعياذ بالله) ثم قال متمثلاً: (لا تتخذن من كلب سوء جرواً).

وفي الصباح جاء أهل مزاحم فحملوه ولم يجدوا فيه أثر سلاح، ولكنهم كانوا يعلمون أن تلك القصيدة قد آتت ثمارها، وما قتله سوى ابن الدمينة.

لم يسكت ابن الدمينة بل حقق ظنهم بقصيدة يرد فيها على مزاحم منها:

قالوا: هَجَتك سَلولُ اللؤم مُخفيةً	قد أنصف الصّخرةَ
قالوا: هَجَاك سَلوليٌّ فقُلتُ لهم:	الصَّماء راميها
رِجالُهم شر من يَمْشِي ونسوتهُم	شرٌّ البريَة واسْتٌ ذَلّ حاميها
يَحْكُكْنَ بالصَخر أستاهاً بها نقب	كما يَحُكُّ نِقاب الجربِ طاليها

وفي قصيدة أخرى يمتدح قتله إياه والطريقة التي أهلكه بها قال:

لك الخير إن واعدت حماءَ فالقها	نهاراً ولا تدلج إذا الليل أظلما
فإنك لا تدري أبيضاءَ طفلةً	تعانقُ أم ليثاً من القوم قَشعما[1]
فلما سرى عن ساعِدي ولحيتي	وأيقن أني لست حماء جَمْجَما

١. القشعم اسم من أسماء الأسد.

وقد كان لمزاحم أخٌ اسمه (جناح) ذهب إلى الوالي أحمد بن اسماعيل فاشتكاه إليه فحبس الوالي ابن الدمينة وطال حبسه، ولم يجد عليه دليلاً سوى القصائد التي لم تكن قاطعة باعترافه التي يمكن أن ينكر قوله إياها أو أنها مجرد كلام، فخلا سبيله.

وكانت أم مزاحم وتعرف بأم أبَان من خثعم قد قالت في قصيدة ترثي ابنها وتحرض أخويه جناحاً ومصعباً قالت فيها:

بأهلي ومالي بل بجل عشيرتي — قتيل بني تيم بغير سلاحِ

فهلا قتلتم بالسلاحِ ابنَ أختِكم — فتظهرَ فيه للشهود جراحُ

فلا تطمعوا في الصلحِ مادمتُ حيةٌ — وما دام حيًّا مصعبٌ وجناحُ

ألم تعلموا أن الدّوائرَ بيننا — تدور وأن الطالبين شِحاحُ

ولم تلبث سلول حتى قتلت رجلاً من خثعم بمزاحم لكن خثعم قتلت نفراً من سلول، يقتلون أناساً بأناس وهم في الإسلام واللّه سبحانه يقول: (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

ولما كبر مصعب أخو مزاحم حرضته أمه على قتل ابن الدمينة، وقالت له :

- اقتل ابن الدمينة فإنه قتل أخاك، وهجا قومك، وذمّ أختك، وكنت أعذرك قبل هذا لأنك كنت صغيراً وقد كبرت الآن.

فلما أكثرت عليه خرج من عندها ، فلحق بابن الدمينة في تبالة[1] وهو قاصد الحج، فلما بصر به في السوق أخذ من جزار شفرته وعدا على ابن الدمينة فجرحه ولم يصب منه مقتلاً ثم هرب، لكنه تابعه مرة أخرى في العبلاء وهي قرية قريبة من تبالة فعلاه بسيفه حتى قتله، ثم هرب فتبعه الناس فاعتصم بدار وأغلقها على نفسه ولما جاء صاحب الدار وكان من قومه صاح به وقال :

- يا مصعب إن لم تضع يدك في يد السلطان قتلتك العامة فاخرج .

فلما عرفه قال:

- أنا في ذمتك حتى تسلمني السلطان.

فلما سلمه السطان قذفه في سجن تبالة.

وقد مكث ابن الدمينة جريحاً ينزف حتى مات من غده، وكان ينشد قبل موته يحرض قومه ويوبخهم:

هتفت بأكلبٍ ودعوت قيساً   فلا خُذّلاً دعوتُ ولا قليلا

ثأرتِ مزاحماً وسررتِ قيساً   وكنت لما هممتِ به فعولا

---

[1] تبالة بلدة قديمة تقع شمال مدينة بيشة على الطريق القديم إلى مكة ، فتحت في سنة عشر هجرية وأسلم أهلها في غير حرب ، وكان صنم ذي الخلصة المشهور قريباً منها، وكانت أول عمل وليه الحجاج لكنه حين قرب منها قال: لا أراني أميراً تستره أكمة فقفل راجعاً.

فـلا تشـلل يـداك ولا تـزالا ... تفيدان الغنـائـم والجزيـلا

فلـو كـان ابن عبـدالله حـيّا ... لصبّـح فـي منـازلهـا سلـولا

وابن عبدالله هو ابنه رزق الذي مات قبله.

وبلغ مصعباً أن قوم ابن الدمينة سيقتحمون السجن ويقتلونه به غيلة فقال يحرض قومه:

لقيت أبا السـريِّ وقـد تكـالا ... لـه حـقٌّ العـداوة في فـؤادي

فكاد الغيـظُ يفرُطُنـي إليـه ... بطعنٍ دونـه طَعـنُ السَّـدادِ

إذا نبحت كلابُ السجن حولي ... طمِعْت هشـاشـةً وهفا فؤادي

طماعةً أن يـدق السجن قومي ... وخوفـاً أن يُبيّتنـي الأعـادي

فما ظني بقومـي شـرُّ ظـنّ ... ولا أن يُسْلمـوني فـي البـلاد

وقـد جـدّلتُ قاتلهـم فأمسى ... يمجُّ دَمَ الوَتيْن علـى الوِسـادِ

فجاءت بنو عقيل ليلاً فكسروا السجن وأخرجوه منه فهرب إلى صنعاء.



من أمتع ما تقرأ من شعر العرب القدامى هو ما أنشده شعراء منطقة (ما بين مكة واليمن) خاصة شعراء أزد شنوءة وشعراء قبائل بيشة حيث أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رِقّ المعاني، جمعوا بين الإبداع وقوة السبك، وعلو الهمم وكريم الأخلاق.

بعضهم عاش في الجاهلية ومات فيها لكنه نظم قصيدة افتخر بها العرب على العجم وسموها لامية العرب، أوصى بحفظها الخليفة عمر، فلم يقر لأدباء العجم قرار حتى نظم (الطغرائي) لاميتهم بعد خمسمائة عام لكنه لم ينل من لا ميتنا شيء.

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل
وإني كفاني فقد من ليس جازياً ... بحسنى ولا في قربه متعلّل

وفي الإسلام يأتي العجير السلولي الذي أوصى الخليفة عبدالملك بن مروان مؤدب ولده قائلاً: إذا رويتهم فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي:

يبين الجارُ حين يبين عني ... ولم تأنس إلي كلابُ جاري
وتظعُن جارتي من جنب بيتي ... ولم تُستَر بستر من جداري

ثم يأتي عبدالله بن الدمينة الأكلبي شاعر الحب والحياة فيقول:

ألا يا صبا نجد متى هِجت من نجد ... فقد زادني مَسْراكَ وجداً على وجدِ
أإنْ هتفت ورقاءُ في رونَقِ الضحى ... على فننٍ غض النبات من الرندِ

في هذا الكتاب ستجد شعراء قد تتفاجأ أنك لم تسمع بهم من قبل مع علو كعبهم وثراء تراثهم ثم تتساءل لماذا هذه للجفوة يا مناهج التعليم ؟.